

د. محمد عمارة

الإسلام والأفلاكي

الماضي .. والحاضر .. والمستقبل

مكتبة الشرق الدولية

الإسلام والأقليات
الماضي .. والحاضر .. والمستقبل

الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م



ش.الفتح - أبراج عثمان - أمام الميرلاند - روكسى.القاهرة

تليفون وهاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: adel almoalem < shoroukintl @ Yahoo. com >

د. محمد عمارة

الإسلام والأقليات

الماضي.. والحاضر.. والمستقبل



عن الموضوع

لأننى قد تناولت هذا الموضوع فى عدد من الكتب والدراسات^(١) . ومراعاة للمقام، الذى يقتضى - وتكفى فيه - المبادئ والخلاصات . . وحتى لا تكون هذه الصفحات تكراراً، أو إسهاباً يخرجان بها عن المقاصد المبتغاة . . سيكون التركيز على تناول ومعالجة المحاور الآتية:

- ١ - مصطلحات البحث . . وإطاره . .
- ٢ - الموقف الإسلامى - دينياً . . وتاريخياً - من الأقليات . .
- ٣ - الواقع المعاصر للأقليات . . والتحديات المحيطة بها . .
- ٤ - نظرة إلى المستقبل . .

- ١ -

مصطلحات المبحث.. وإطاره

مصطلح «الأقلية»، فى استخداماتنا الثقافية والاجتماعية الحديثة والمعاصرة، مصطلح وافد من المفاهيم الغربية التى وفدت إلى واقعنا الثقافى والاجتماعى منذ الاحتكاك بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية فى العصر الحديث.. لذلك، فهو مصطلح مُحْمَلٌ بالمعانى والظلال «العنصرية - الإثنية - العرقية» التى ارتبط بها فى الثقافة الغربية، عندما استخدم للتعبير عن «الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم، أو يعتبرهم الآخرون، مشتركين فى بعض السمات والخصائص التى تميزهم عن التجمعات الأخرى فى مجتمع يستطيعون فى إطاره تطوير سلوكهم الثقافى الخاص»^(٢).

فالأقلية - «الإثنية» - بهذا المفهوم الغربى، ليست مجرد أقلية عددية، ولا هى بالأقلية السياسية، وإنما هى أقلية لها «هوية ثقافية» مختلفة عن الهوية الثقافية لأغلبية المجتمع الذى تعيش فيه، وهويتها الثقافية هذه عادة ما تتطور فى اتجاه متميز أو مختلف عن الهوية الغالبة على أغلبية المجتمع الذى تعيش فيه.. ولذلك، ولهذا السبب، نفهم رفض أقباط مصر - وهم أقلية عددية - ورفضنا معهم، إطلاق مصطلح «الأقلية»، بهذا المفهوم الغربى عليهم.. فهويتهم الثقافية والقومية والحضارية - بل وحتى الأصول العرقية - هى ذاتها هوية الأغلبية المسلمة وأصولها.. ومن هنا كان الصدق وكانت الإصابة لقول «الأبنا موسى» - أسقف الشباب بالكنيسة الأرثوذكسية المصرية -: «نحن كأقباط، لا نشعر أننا أقلية؛ لأنه ليس بيننا وبين إخواننا المسلمين فرق عرقى «إثنى»؛ لأننا مصريون، يجرى فينا دم واحد من أيام الفراعنة - ومن جهة الهوية العربية، فنحن نحيا العربية؛ لأنها هويتنا الثقافية.. والثقافة الإسلامية هى السائدة الآن.. وأى قبطى يحمل فى الكثير من

حديثه تعبيرات إسلامية، يتحدث بها ببساطة ودون شعور بأنها دخيلة بل هي جزء من مكوناته.. نحن أقلية عددية فقط، وهذا لا يجعلنا نشعر أن هناك شرخاً بيننا وبين إخواننا المسلمين. كما أننا لا نشعر بشعور الأقلية البغيض الذي يعاني منه غيرنا..»^(٣).

هذا عن المفهوم الوافد لمصطلح «الأقلية»..

ومن الأمور المهمة، والجديرة بالملاحظة والاعتبار، أن تراثنا الإسلامى، الدينى منه والحضارى والتاريخى، وكذلك اللغوى، لم يعرف استخدام مصطلح «الأقلية» بهذا المفهوم الوافد، وإنما عرفه فقط بمعناه اللغوى، أى الأقلية العددية، فى مقابل الأكثرية العددية، دونما أى مفاضلة أو تمييز بسبب هذه الكثرة أو القلة فى الأعداد. بل لقد كثر الحديث فى القرآن الكريم عن ارتباط الكثرة بقلة العلم وبقلة الإيمان ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]، ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

فلم تكن الكثرة مزية دائماً، بل لقد ارتبط مصطلحها، فى الكثير من الاستخدامات، بالصفات السلبية.. وعلى العكس من ذلك، ارتبط مصطلح القلة والأقلية - غالباً - فى التعبيرات القرآنية بالصفات الإيجابية ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿كَمِ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

فالأكثورية والأقلية مصطلحان يستخدمان بمعنى الكثرة العددية والقلة العددية، فقط لا غير، دونما أية ظلال مفهومية لصيقة بالكثرة أو القلة، وإنما العبرة بالمعايير التى تجتمع عليها وتؤمن بها وتنتمى إليها الأكثريات والأقليات.. فالمدح والذم، والإيجاب والسلب، والقبول والرفض إنما هو للمعايير والمكونات والهويات

والمواقف، ولا أثر فى ذلك للكثرة أو القلة فى الأعداد..

وانطلاقاً من هذه الحقيقة رأينا الإسلام، وتراثه الفكرى والحضارى، قد تميز عن الأنساق الفكرية والحضارية التى مايزت بين الأعراق والأجناس، وأقامت علاقات «النفى للآخر» الدينى واللغوى (القومى).. فلقد نظر الإسلام، أولاً وبالدرجة الأولى، إلى «الجوامع» - الجامعة - وذلك دون أن يهمل «التميزات» - الميزة، وإنما سلك التمايزات والاختلافات فى إطار الجوامع الموحدة، على نحو من الوسطية الجامعة، التى لا تجور على «الجوامع» فتؤدى إلى «التشردم» . والتشظى.. والتفرقة»، ولا تجور على «التميزات والاختلافات»، فتفضى إلى «قهر هذه التمايزات» ونفى الاختلافات.

فالإنسانية كلها قد خلقها الله، سبحانه وتعالى، من نفس واحدة، ثم شاء لها التنوع والاختلاف.. إلى ذكران وإناث.. وشعوب وقبائل.. وألسنة ولغات وقوميات.. وألوان وأجناس.. وملل ونحل وشرائع وأديان.. ومناهج وثقافات وحضارات.. وأعراف وتقاليد وعادات.. فى إطار «جامع الإنسانية الواحدة».. ونفس المنهاج، قد حكم الرؤية الإسلامية فى النظر إلى «الأمة».. ورعية الدولة.. فجامع الأمة هو الرابط الذى يظل التنوع والاختلاف فى العقائد والشرائع الدينية، وفى الشعوب والقبائل، وفى الألسنة واللغات والقوميات، وفى الطبقات الاجتماعية، وفى الأقاليم والأوطان، وفى العادات والتقاليد والأعراف - أى الثقافات الفرعية.. كل هذا التنوع - الذى هو سنة من سنن الله التى لا تبدل لها ولا تحوّل - يعيش ويزدهر فى ظلال جوامع الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة، وفى إطار «دار الإسلام» ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [أى ملة واحدة] ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فكل هذه الأنواع من التمايزات هى القاعدة، والإعمال لسنة الله، سبحانه

وتعالى، فى كل عوالم الخلق، ومن ثم فلا شبهة لوجود أية ظلال سلبية تنشأ بسبب أى تنوع أو اختلاف من هذه التمايزات، وبصرف النظر عن الأعداد التى ترتبط بأى لون من ألوان هذا الاختلاف.. فهذه التمايزات إما أنها مؤسسة على صفات لصيقة، هى من صنع الله، أو على خيارات إنسانية، التعددية فيها سنة من سنن الله..

هذا عن المفهوم الإسلامى لمصطلحات هذا البحث - «الأقليات.. والأكثريات» - وهو مفهوم لا علاقة له بالظلال التى ارتبطت بهذه المصطلحات فى السياق الحضارى الغربى، تلك التى ميّزت بين الأغلبيات وبين «الإثنيات» العرقية.. والألوان.. والديانات، فى المجتمعات الغربية..

أما إطار هذه الدراسة، فهو: الأقليات غير المسلمة - النصرانية.. واليهودية.. والأرواحية - [الوثنية] - فى العالم الإسلامى.. مع التركيز على مصر والوطن العربى كنموذج تطبقى للمنهاج الإسلامى فى النظر لهذا الموضوع.

- ٢ -

الموقف الإسلامى من الأقليات

لقد مثل الإسلام - منذ ظهوره - «ثورة إصلاحية.. وإصلاحاً ثورياً» على المفاهيم السائدة التى حكمت علاقات الشعوب والأجناس والأديان فى ذلك التاريخ..

ـ فالرومان كانوا يحتكرون «السيادة.. والشرف» للجنس الرومانى، ويرون فى كل الآخرين والأغيار «برابرة» لا يستحقون حتى أن يطبق عليهم القانون الرومانى!.. ولا حق لهم فى التدين بغير دين السادة الرومان - وثنيًا كان هذا الدين أو نصرانيًا ملكانيًا.. ولقد صبوا جام اضطهادهم، فى حقبة الوثنية، على اليهود وعلى النصارى، وفى حقبة تنصرهم الملكانى، على النصرانية الشرقية اليعقوبية - فى مصر والشام..

ـ واليهودية التلمودية، قد تحولت إلى «إثنية - عنصرية»، بل و«وثنية» جعلت الله، سبحانه وتعالى، إله بنى إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها، وذلك بدلاً من الإيمان بأنه، سبحانه، هو إله العالمين.. ولقد صبوا جام اضطهادهم على المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، وعلى حواريه والذين آمنوا به واتبعوه..

ـ والنصرانية - هى الأخرى - بادلت الآخرين إنكاراً بإنكار، واضطهاداً باضطهاد.. فبمجرد أن أفاقت - فى مصر مثلاً - من الاضطهاد الوثنى الرومانى، وفور تدين الدولة الرومانية بالنصرانية، على عهد الإمبراطور «قسطنطين» (٢٧٤ - ٣٣٧م) صبت هذه النصرانية جام اضطهادها على الوثنية المصرية، فدمرت معابدها، وأحرقت مكباتها، وسحلت وقتلت ومزقت وأحرقت فلاسفتها.. وسجل التاريخ كيف قاد بطرك الكنيسة المصرية «تيوفيلوس» [٣٨٥ - ٤١٢م]

«حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها.. وطالت هذه الإبادة مكتبات المعابد.. وتم السحل والتمزيق والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة، وعالمة الفلك والرياضيات «إناتيه» [٣٧٠ - ٤١٥ م].. وذلك فضلاً عن تحطيم التماثيل.. والعبث بالآثار»^(٤)..

ثم عادت النصرانية يعقوبية إلى موقع الضحية والمضطهد من النصرانية الملكية الرومانية، بعد الاختلافات حول طبيعة المسيح، عليه السلام..

ولقد سجل القرآن الكريم هذه المواقف الراضية لقبول الآخر، والتعايش معه، والتسامح مع تمايزاته واختلافاته، عندما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

جاء الإسلام وهذا هو موقف الحكام من المحكومين.. وموقف الأغلبية من الأقلية.. وموقف كل صاحب دين وهوية من الأغيار والآخرين.. فمثلاً وأحدث - منذ ظهوره، ومنذ إقامة دولته وأمته وحضارته - «ثورة إصلاحية».. وإصلاحاً ثورياً في هذه النظرات والعلاقات.. جاء الإسلام فسلك الاختلافات في إطار الوحدة، وجعل التنوع هو السنة والقاعدة والقانون، ووضع لبنات في البناء الجامع.. وقرر أن «الآخر» هو جزء من «الذات»، وذلك لأول مرة في تاريخ الشرائع والأمم والدول والحضارات..

■ فالله، سبحانه وتعالى، هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].. وليس رب شعب دون غيره من الشعوب..

■ وكل الشرائع الدينية، التي توالى على امتداد علاقة السماء بالأرض، هي تنوع في إطار الدين الإلهي الواحد ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]..

■ والإيمان الإسلامى شامل للإيمان بأصول الدين الإلهي الواحد، وبكل الرسل والأنبياء ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴿البقرة: ٢٨٥﴾ . . فجميع هؤلاء الرسل والأنبياء إنما يمثلون تنوع الشرائع الإلهية في إطار الدين الإلهي الواحد . «الأنبياء إخوة من علات، وأمها تنهم شتى، ودينهم واحد» - رواه البخاري ومسلم وأبو داود . .

■ والقرآن الكريم مصدق لما بين يديه من الكتب والصحف والألواح التي نزل بها وحى السماء على سائر الرسل والأنبياء ﴿وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢] . .

ورغم التحريف الذى أصاب بعض هذه الكتب السابقة، والنسيان الذى أصاب بعضها . . ذهب القرآن - فى الدقة والإنصاف - إلى تقرير أن هذا التحريف والنسيان لم يكونا عامين . . ففى هذه الكتب - وخاصة التوراة والإنجيل - هدى ونور . . ومطلوب من أهلها تحكيمها والحكم بما صح فيها ﴿وَكَيْفُ يُحْكَمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، ﴿وَلِيَحْكَمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧] .

■ وحتى فى الشرائع، التمايزة بتمايز الأمم والرسالات والحقب التاريخية . . لم يعمم الإسلام النسخ على جميع هذه الشرائع السابقة، وإنما قرر «أن شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم تنسخ» بتطور الواقع الذى تجاوزهها . .

■ وكما لم يعمم الإسلام أحكام التحريف على كل الكتب، ولا أحكام النسخ على جميع أحكام تلك الشرائع . . لم يعمم الأحكام على سائر أهل هذه الكتب والشرائع، وإنما ميز بين الصادقين فى تدينهم بها وبين غير الصادقين . . فهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣] . .

■ ولم يقف ذلك عند أحكام الدنيا ومعاملاتها، بل قرر الإسلام - فى أمر النجاة يوم الدين - أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً . . وأن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] . . وأن الذين آمنوا بالتوحيد فى الألوهية والربوبية، وبالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء، وعملوا صالحاً - وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية السابقة - لن توصل أمامهم أبواب النجاة فى الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] . .

نعم . . جاء الإسلام فأحدث هذه «الثورة الإصلاحية . . والإصلاح الثورى» فى العلاقة بالآخرين، وبلغ فى العمق والسمو الحد الذى سلك فيه «الآخر» فى جامع «الذات»، وذلك عندما سلك أمم الشرائع الأخرى فى «ذات الدين الإلهى الواحد» .

■ ولأن الإسلام دين ودولة . . وشريعة ومجتمع . . ودنيا وآخرة . . وفرد وأسرة وجماعة وأمة . . وأغلب فرائضه وتكاليفه اجتماعية لا تتحقق إلا فى إطار وطن ودولة ونظام واجتماع . . وحتى تكاليفه الفردية يزداد ثوابها وتتعاظم تأثيراتها الاجتماعية عندما تؤدى فى جماعة . . فربانيته جهاد اجتماعى، وليست عزلة تدير الظهر للدنيا فى شعب من الشعاب أو مغارة من المغارات . . لأن للإسلام هذا التميز الذى تفردت به شريعته بين شرائع السماء، فإن مبادئ «الإصلاح الثورى» التى جاء بها فى العلاقة «بالآخر» لم تقف عند حدود «الوصايا . . والفلسفات . . والفكر النظرى»، وإنما وضعها مواد فى دستور دولته الأولى - دولة النبوة والخلافة الراشدة - . . وصياغات دستورية فى المواثيق والمعاهدات والعهود التى عقدتها الدولة الإسلامية مع «الآخرين» الذين قامت بينهم وبين دولة الإسلام علاقات ومصالح وارتباطات، ثم تجسد كل ذلك فى الواقع والحضارة والتاريخ . .

ففى دستور دولة المدينة - [الصحيفة . . الكتاب] - الذى وضعه رسول الله ﷺ عند قيام هذه الدولة، عقب الهجرة؛ لينظم الحقوق والواجبات بين مكونات الأمة، فى الوطن . . نص هذا الدستور على أن القطاعات العربية المتهددة من قبائل المدينة، ومن لحق بهم وعاهدوه، قد أصبحوا جزءاً أصيلاً فى الأمة الواحدة والرعية المتحدة لهذه الدولة الإسلامية . . فنص هذا الدستور على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم . . وأن بطانة يهود ومواليهم كأنفسهم . . وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة . . وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه»^(٥) . .

وهكذا تجسد التحام «الآخر اليهودي» في الأمة الواحدة والرعية المتحدة للدولة، في ظل المرجعية الإسلامية، ومن خلال سعتها التي نص عليها هذا الدستور عندما قال: «.. وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مردّه إلى الله وإلى محمد رسول الله..»^(٦).

كذلك تجسد هذا الالتحام «بالآخر»، وتحققت هذه المساواة وإياه في العلاقة التي أدخلت النصارى - نصارى «نجران» وكل المتدينين بالنصرانية - في صلب الأمة الواحدة، وفي رعية الدولة المتحدة، فنص ميثاق العهد الذي كتبه رسول الله ﷺ لنصارى «نجران» على مجموعة من المبادئ الدستورية التي وضعت مبادئ وفلسفات علاقة الإسلام بالآخرين في الممارسة والتطبيق.. فجاء في هذا الميثاق: «.. ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها»، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية.. جوار الله وذمة محمد رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدتهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير.. أن أحمى جانبهم، وأدب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السباح، حيث كانوا من بر أو بحر، شرقاً وغرباً، بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتي»..

ولم يقف هذا الميثاق، فقط، عند ضمان حرية الاختلاف في المعتقد الديني، وحرية إقامة هذا المعتقد المخالف للإسلام.. وإنما نص على احترام «الوجود المؤسسى» لهذا التنوع والاختلاف.. «.. فلا يغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته»..

ولأن «الجزية» هي «بدل جنديّة»، لا تؤخذ إلا من القادرين مالياً، الذين يستطيعون حمل السلاح وأداء ضريبة القتال دفاعاً عن الوطن، وليست «بدلاً من الإيمان بالإسلام» وإلا لفرضت على الرهبان ورجال الدين.. وبدليل أن الذين اختاروا أداء ضريبة الجنديّة في صفوف المسلمين، ضد الفرس والروم، وهم على دياناتهم غير الإسلامية - في الشام.. والعراق.. ومصر - لم تفرض عليهم الجزية، وإنما اقتسموا مع المسلمين الغنائم على قدم المساواة.. لأن هذا هو موقع «الجزية» في علاقة الدولة الإسلامية بالآخرين، جاء في ميثاق نصارى «نجران»:

«.. ولا يُحْشَرُونَ - [أى لا يكلفون التعبئة العامة للقتال] - ولا يُكَلَّف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أُعْطُوا الذمة على أن لا يُكَلَّفُوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذُبَابًا عَنْهُمْ، وجواراً دونهم ولا يُكْرَهُوا على تجهيز أحد من المسلمين إلى الحرب الذى يلقون فيه عدوهم، بقوة وسلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حمد عليه، وعُرف له وكوفئ به...».

كما نص هذا الميثاق على أن العدل فى القضاء والمساواة فى تحمّل الأعباء المالية إنما هى فريضة إلهية شاملة لكل الأمة، على اختلاف معتقداتها الدينية «.. فلا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله، لا يُجَار عليه، ولا يُحْمَل منه إلا قدر طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارته وإقبال ثمرتها، ولا يُكَلَّف شططا ولا يُتَجَاوَز به حد أصحاب الخراج من نظرائه.. ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين.. ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين...».

أما الحرية الدينية، والحق فى المغايرة للإسلام، فلقد قدسها هذا الإسلام عندما نفى وجود الدين والتدين مع وجود الإكراه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. ولذلك، نص هذا الميثاق على أنه «لا يُجْبَر أحد ممن كان على ملة النصرانية كرها على الإسلام، ولا تُجَادَلُوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن، ويُخَفَضُ لَهُم جناح الرحمة، ويُكْف عنهم أذى المكروه حيث كانوا وأين كانوا من البلاد...».

وإمعانا من الإسلام فى توفير عوامل التلاحم للأمة الواحدة، التى جعل الإسلام وحدتها فريضة نص عليها القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الانباء: ٩٢].. فلقد حققت التطبيقات الإسلامية فى الواقع الاجتماعى، عدداً من الإنجازات التى سلكت الجميع فى الأمة الواحدة.. فالموالى، الذين كانوا أرقاء ثم حررهم الإسلام، دمجهم النظام الإسلامى فى

قبائلهم، التى كانوا أرقاء فيها، ولحمهم فيها بلحمة «الولاء»، الذى جعله كالنسب سواء بسواء، يكسب هؤلاء الموالى شرف هذه القبائل وحسبها ونسبها. . ونصت سنة رسول الله ﷺ على أن «مولى القوم منهم» - رواه البخارى - وعلى «أن الولاء لُحمة كُلُّحمة النسب» - رواه الدارمى وأبو داود - حتى لقد أصبح بلال الحبشى «سيداً» يقول عنه عمر بن الخطاب، وعن أبى بكر، الذى اشتراه وأعتقه: «سيدنا أعتق سيدنا!». . وحتى لقد تمنى عمر أن يكون أحد الموالى - «سالم مولى أبى حذيفة» [١٢هـ - ٦٣٣م] - حياً ليُجعله خليفة على المسلمين! . .

والقبائل والعشائر، التى اندمج فيها الموالى، قد تحولت إلى لبنات فى بناء الأمة الواحدة. .

كذلك سلكت التطبيقات الإسلامية باب المصاهرة والزواج بين المسلمين وبين الكتابيات المحصنات؛ لتحقيق أعلى درجات التلاحم بين غير المسلمين وبين المسلمين فى بناء الأمة الواحدة. . فزواج المسلم من الكتابية يدخل ذويها من غير المسلمين فى دائرة «أولى الأرحام» عند المسلمين، وتلك قمة التلاحم والاندماج. . وعنها يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ - ١٨٤٩م - ١٩٠٥م]: «أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية، نصرانية أو يهودية، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها، والقيام بفروض عبادتها، والذهاب إلى كنيسها أو بيعتها، وهى منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبه فى العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه، وأميرة بيته، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه. . لم يفرق الدين فى حقوق الزوجية بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية. . ولم تخرج الزوجة الكتابية، باختلافها فى العقيدة مع زوجها، من حكم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] فلها حظها من المودة ونصيبتها من الرحمة وهى كما هى. . وهو يسكن إليها كما تسكن إليه، وهو لباس لها كما أنها لباس له. أين أنت من صلة المصاهرة التى تحدث بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة، وما يكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة، على ما عهد فى طبيعة البشر؟ وما أجلى ما يظهر من ذلك

بين الأولاد وأخوالهم وذوى القربى لوالدتهم. أيغيب عنك ما يستحكم من روابط الألفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح الذى لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟»^(٧)..

ولذلك، وحتى يكون هذا الزواج سبيلاً لهذا التلاحم، حرص عهد رسول الله ﷺ مع نصارى «نجران» على أن يتوفر لهذا الزواج عنصر الرضا والقبول.. فالمرأة لابد، فى زواجها، من «ولى»، وأولياء الكتابية كتاييون، فلا بد أن يكون هذا الزواج عن محبة ورضا وقبول واختيار.. وعن هذا المبدأ الإسلامى جاء فى هذا الميثاق: «.. ولا يحْمَلُوا مِنَ النِّكَاحِ - [الزَّوَاجِ] - شَطَطًا لا يريدونه، ولا يُكْرَهُ أَهْلُ الْبَنَاتِ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يَضَارُّوا فِي ذَلِكَ إِنْ مَنَعُوا خَاطِبًا وَأَبَا تَزْوِيجًا، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَطِيَّةَ قُلُوبِهِمْ، وَمَسَامَحَةً أَهْوَائِهِمْ، إِنْ أَحْبَبُوهُ وَرَضُوا بِهِ..».

ولأن هذا التلاحم، بواسطة المصاهرة، لا يتحقق إلا فى ظل الاعتراف الإسلامى «بالآخر الدينى»، وبحق هذا الآخر فى المغايرة الدينية - وهو ما تميّز به الإسلام عن كل الآخرين، وبسببه جاز زواج المسلم من «الأخرى»، لأنه يعترف بدينها، ومكّلف باحترام عقيدتها وتدينها - على عكس موقف الآخرين من الإسلام، ومن عقيدة المسلمة - لهذا التميّز الإسلامى، كان زواج المسلم من الكتابية باباً للتلاحم، ولإدخال غير المسلمين فى دائرة «أولى الأرحام»، ولم يكن هذا الزواج سبباً من أسباب الشقاق الاجتماعى. فنص العهد مع نصارى «نجران» على أنه «إذا صارت النصرانية عند المسلم - [زوجة] - فعليه أن يرضى بنصرانيتها، ويتبع هواها فى الاقتداء برؤسائها، والأخذ بمعالم دينها، ولا يمنعها ذلك. فمن خالف ذلك وأكرهها على شيء من أمر دينها فقد خالف عهد الله وعصى ميثاق رسول الله، وهو عند الله من الكاذبين..».

وإذا كانت تطبيقات الدولة الإسلامية لهذه المبادئ الإسلامية، قد بلغت، وحقت - قبل أربعة عشر قرناً - الحد الذى يدهش له الكثيرون فى عصرنا الحاضر.. من مثل تحرير جيش الفتح الإسلامى لمصر كنائس نصارى مصر من الاحتلال والاعتصاب الرومانى، لا ليحولها إلى مساجد للمسلمين، وإنما ليردها للنصارى اليعاقبة يتعبدون فيها.. فإن عهد رسول الله ﷺ مع نصارى «نجران» قد

بلغ الذروة - فى تعامل الدولة الإسلامية مع دور العبادة هذه - إلى الحد الذى نص فيه على أن مساعدة الدولة الإسلامية لغير المسلمين فى بناء دور عباداتهم هى جزء من واجبات هذه الدولة . . فليست الواجبات فقط هى السماح ببناء دور العبادة، وإنما هى أيضاً الإعانة على بنائها . . ولأن غير المسلمين هم جزء أصيل فى الأمة الواحدة، والرعية المتحدة لهذه الدولة، فإن واجباتها حيال دور عبادتهم هى ذاتها الواجبات حيال مساجد المسلمين . . فجاء فى هذا الميثاق مع نصارى «نجران»: «.. ولهم إن احتاجوا فى مرمة بيعهم وصوامعهم أو شىء من مصالح أمور دينهم، إلى رفق - [مساعدة] - من المسلمين وتقوية لهم على مرمتها، أن يرفدوا على ذلك ويعاونوا، ولا يكون ذلك ديناً عليهم بل تقوية لهم على مصلحة دينهم، ووفاء بعهد رسول الله، وموهبة لهم، ومنة لله ورسوله عليهم».

ثم يتوج هذا الميثاق بنود هذه الحقوق بالنص على كامل المساواة بين المختلفين فى الدين والمتحدين فى الأمة الواحدة، والملتزمين فى الرعية المتحدة للدولة الإسلامية، بقول رسول الله ﷺ: «.. لأننى أعطيتهم عهد الله أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

ولأن وحدة الأمة لا تتحقق إلا بولاء كل أبنائها لها، وانتماء جميعهم لدولتها ولقوميات هويتها وأمنها الوطنى والقومى والحضارى، اشترط هذا العهد على نصارى «نجران» أن يكون الولاء خالصاً والانتماء كاملاً لهذه الأمة الواحدة ولهذه الدولة الإسلامية . . فالولاء - كل الولاء - لها وحدها، والبراء - كل البراء - من جميع أعدائها . . ولذلك، جاء فى هذا الميثاق: «.. واشترط عليه أموراً يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عيناً ولا رقيباً لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلايته، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا - [يساعدوا] - أحداً من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم.. وإن احتيج إلى إخفاء أحد من

المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم»^(٨).

ويزيد من سمو هذا الإنجاز الإسلامى، تعميم التطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج وهذه المبادئ على الديانات الوضعية أيضاً. فلم يقف المسلمون بهذه «الثورة الإصلاحية»، فى العلاقة بالآخر، عند اليهود - أهل التوراة - والنصارى - أهل الإنجيل - فقط، وإنما عموها لتشمل «المجوس» و«الهندوس» و«البوذيين».. وعندما فتح المسلمون فارس - وأهلها مجوس يعبدون النار، ويقولون بالهين أحدهما للخير والنور وثنائهما للشر والظلمة - عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] رضى الله عنه، هذا الأمر، و«الواقع المستجد» على مجلس الشورى - فى مسجد المدينة - وقال:

- «كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ ٣٢ هـ ٥٨٠ - ٦٥٢ م] رضى الله عنه، فقال:

- أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «ستؤا فيهم سنة أهل الكتاب..»^(٩).

فطبقت الخلافة الراشدة هذه السنة النبوية، وساد هذا التطبيق على امتداد تاريخ الإسلام فى بلاد الديانات الوضعية - من فارس إلى الهند إلى الصين - حتى لقد تمتع أهل هذه الديانات، لا بحرية الاعتقاد فقط، وإنما - أيضاً - بحرية مناظرة علماء الإسلام، فى مجالس الخلفاء، إبان مجد وقوة وعظمة الخلافة الإسلامية.. ولقد أورد «السير توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] - بإعجاب - كيف أن زعيم المانوية^(١٠) المجوس - فى فارس - «يزدانبخت» قد أتى بغداد، وناظر المتكلمين المسلمين، فى حضرة الخليفة «المأمون» [١٧٠ - ٢١٨ هـ ٧٨٦ - ٨٣٣ م]، فلما أفحمه علماء الإسلام، تاق «المأمون» إلى أن يسلم «يزدانبخت»، ففاتحه فى ذلك، لكنه رفض، فى أدب، وقال للخليفة:

- «نصيحتك، يا أمير المؤمنين، مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذهبهم.

فتركه المأمون وشأنه . . بل وطلب حمايته من العامة حتى يبلغ مأمنه بين أتباعه وأنصار مذهبه من المجوس^(١١) . .

هكذا بلغ الإسلام القمة، عندما لم يكتف بالوصايا والمنظومة الفكرية والفلسفية، التي تعترف بالآخر - الذي لا يعترف بالإسلام! - وإنما تجاوز «الفكر» إلى «الممارسة والتطبيق»، في الدولة . . والأمة . . والاجتماع . . وعندما تجاوز «الاعتراف بالآخر» إلى حيث دمج هذا «الآخر» في «الذات»، مع الحرص على التعددية الدينية، التي سلكها في إطار «وحدة الدين» الإلهي الواحد . . لا باعتبارها مجرد حق من حقوق الضمير الإنساني، وإنما باعتبارها سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل . . فحقق الإسلام بهذا «الإصلاح الثوري» مستوى غير مسبوق في التاريخ الإنساني، إن على المستوى الفكري أو في الممارسة والتطبيق . .



● وإذا كانت سنة من سنن الله، في الاجتماع الإنساني، أن يكون هناك - دائماً وأبداً - فارق بين «الواقع» وبين «المثال»، وأن يظل «المثال» - دائماً وأبداً - عصياً على كمال التحقق في «الواقع» المعيش . . فإن ممارسات الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية لم تكن دائماً على مستوى هذا «المثال» الإسلامي في العلاقة مع «الآخر» الديني . . كما أن هذا «الآخر» الديني لم يكن - دائماً وأبداً - على مستوى هذا «المثال» الذي نصت عليه العهود والمواثيق . . أو لنقل: لم يكن كل المسلمين ولا كل الحكام على مستوى هذا «المثال» . . ولم يكن كل غير المسلمين على مستوى هذا «المثال» . .

لكن . . ومع ذلك . . ظلت هناك ثوابت حكمت علاقة المسلمين بغير المسلمين، في الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية عبر تاريخ الإسلام . .

■ فلم يعرف هذا التاريخ الإسلامي إكراهاً في الدين . . فلقد دخل الشرق - بالفتوحات الإسلامية - في الدولة الإسلامية خلال سنوات قياسية في تاريخ الفتوحات؛ إذ فتح المسلمون في ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون . . ولقد كانت هذه الفتوحات الإسلامية تحريراً للشرق - الإنسان والأرض -

من القهر الدينى والحضارى الذى مارسه الرومان والفرس ضد شعوب الشرق على امتداد عشرة قرون - من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] فى القرن الرابع قبل الميلاد.. إلى الفتوحات الإسلامية، فى القرن السابع للميلاد.. فترك الناس وما يدينون دونما إكراه، بل وفى أحيان كثيرة دونما ترغيب - عندما كان بعض الولاة أحرص على الجزية منهم على إسلام غير المسلمين! - حتى أن أقليات اليوم الدينية - وخاصة النصرانية - قد ظلت أغليات غير مسلمة فى الدولة الإسلامية لعدة قرون.

وإذا أخذنا مصر نموذجًا - وهى التى ضربت المثل الأروع فى الاستمساك بنصرانيتها على امتداد ستة قرون من الاضطهادات الرومانية التى ضربت بها الأمثال - فإننا نجد أن تحوّل أغلبية أهلها إلى الإسلام، قد استغرق عقودًا طويلة.. فلقد كان تعداد سكانها، من النصارى واليهود، عند الفتح الإسلامى لها [سنة ٢٠هـ سنة ٦٤١م] ٢,٥٠٠,٠٠٠ نسمة.. وحتى نهاية خلافة «معاوية بن أبى سفيان» [٢٠ ق هـ - ٦٠هـ - ٦٠٣ - ٦٨٠م] - أى بعد نحو نصف قرن من الفتح الإسلامى - كان قرابة نصف المصريين لا يزالون على نصرانيتهم.. فكان تعداد غير المسلمين - فى نهاية عهد معاوية [سنة ٦٠هـ سنة ٦٨٠م] ١,٠٤٠,٠٠٠ نسمة.. وفى نهاية عهد هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣هـ - ٧٦٦ - ٨٠٩م] - أى بعد مرور قرابة القرنين من الزمان على تاريخ الفتح - كان تعداد غير المسلمين بمصر ٦٥٠,٠٠٠ نسمة - أى نحو ربع السكان، البالغ عددهم يومئذ ٢,٦٧١,٠٠٠ نسمة.. وحتى القرن التاسع الميلادى - أى بعد قرنين ونصف من الفتح الإسلامى لمصر - كانت نسبة غير المسلمين فى سكانها ٢٠٪ من هؤلاء السكان^(١٢).. الأمر الذى يقدم الحقائق المادية - بالأرقام - لهذه الخلاصة التى كتبها المستشرق الإنجليزى - الحجة.. والشديد التدين بالنصرانية - «سير توماس أرنولد»، والتى قال فيها: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدى المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح..»^(١٣).

فلم يكن هناك إكراه على التحول إلى الإسلام.. بل لم تكن للإسلام، عبر تاريخه، «مؤسسة تبشيرية» تنظم وتتابع نشر هذا الدين..

وأكثر من ذلك، فلقد كتب علماء وباحثون من النصارى الغربيين، عن تحولات الأغلبية النصرانية الشرقية إلى الإسلام، فأرجعوا هذه التحولات إلى اختلافات الكنائس النصرانية حول طبيعة المسيح، عليه السلام، تلك الاختلافات التي حوّلت العقيدة النصرانية إلى أسرار وألغاز جعلتها مستعصية على فهم الجمهور، فلما أشرقت شمس التوحيد الإسلامى، على هذا النحو البسيط والفطرى، تحولت أغلبية نصارى الشرق إلى هذا التوحيد، عن رغبة، وللإشباع الروحى، ولخلو الإسلام من سلطة الكهنوت التى تحتكر مفاتيح التوبة والخلاص.. تحولت هذه الأغلبية - لذلك - نحو الإسلام دونما إكراه، بل ولا حتى ترغيب!.. كتب عن هذه الحقيقة علماء نصارى - منهم «كتانى - Caetani» الذى يقول: «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها روح الهلينية إلى اللاهوت المسيحى.. أما الشرق، الذى عُرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فلقد كانت الثقافة الهلينية وبالأعلى عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية، التى اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة، إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل.. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى فى أحضان نبي العرب!..».

لقد أقبل الناس على الإسلام، الذى رأوه - كما يقول «مونتيه»: «عقلانى الجوهر، بأوسع معانى هذه الكلمة»، أقبلوا عليه «دون أية محاولة للإرغام والاضطهاد» - كما يقول «أرنولد»^(١٤).

■ والثابت الثالث من ثوابت علاقة الإسلام بغير المسلمين، في الدولة الإسلامية والمجتمعات الإسلامية، هو استمرار غير المسلمين قباضين على عصب دواوين وإدارات الدولة الإسلامية - قبل تعريب لغة تلك الدواوين وبعد تعريبها [سنة ٨٧ هـ سنة ٧٠٥ م] - وهذه الحقيقة جعلت المستشرق الألماني الحجة «آدم متر» [١٨٦٩ - ١٩١٧ م] يكتب فيقول: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»^(١٥)!

ومن يراجع كتاب [الإشارة إلى من نال الوزارة] - لابن الصيرفي - يرى حجم السيطرة غير المسلمة على مناصب الوزارة والإدارة، عبر تلك القرون^(١٦) ..

■ أما التوترات الطائفية التي شهدتها المجتمعات الإسلامية، والتي ألحقت قدرًا من الضيق والتضييق والتمييز والأذى بالأقليات غير الإسلامية، فلقد كانت عارضة .. وعابرة .. وكانت أغلب أسبابها وافدة على الموقف الإسلامى الثابت والأصيل، ومفروضة على المنهاج الطبيعي للتطبيقات الإسلامية لهذا المنهاج .. وبعبارة «سير توماس أرنولد»: فلقد كان مرد هذه الاضطهادات إلى «ظروف محلية» أكثر مما كانت ثمرة لمبادئ التعصب وعدم التسامح^(١٧) ..

أما هذه الأسباب الطارئة على الإسلام، والمفروضة على منهاج المسلمين في معاملة الآخر الدينى، فلقد فصلها وحصرها باحث ومؤرخ نصرانى لبنانى، هو الدكتور «جورج قرم»، عندما قال: «إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصى، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ - ٨٢١ - ٨٦١ م] الخليفة الميال بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٣٧٥ - ٤١١ هـ - ٩٨٥ - ١٠٢١ م] الذى غالى في التصرف معهم بشدة - وكلا هذين الحاكمين عم اضطهادهما المسلمين وغير المسلمين!!].

العامل الثانى: هو تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتها المباشرة بالاضطهادات التى وقعت في عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث؛ فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضاً، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠م وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال ثار وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولاسيما الأرمن - التي تعاونت مع الغازى.

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سبباً في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الدميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة أحياناً، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة..»^(١٨).

وإذا شئنا الإشارة إلى وقائع من التاريخ - الوسيط والحديث - تؤكد صدق هذا التحليل الذى قدمه الدكتور «جورج قرم» لأسباب التوترات الطائفية العارضة، وخاصة بسبب الغوايات الاستعمارية لبعض أبناء الأقليات الدينية، فإن هناك واقعة دالة إبان الغزوة التترية، عندما استقوى نصارى دمشق بالقائد التترى «كتبغا» - وكان نصرانياً نسطورياً - فأنحازوا للغزاة ضد المسلمين، وتحولوا إلى أداة لإذلال واضطهاد للمسلمين فى ظل الاحتلال التترى.. ولقد تحدث مؤرخ العصر المقيزى [٧٦٦ - ٨٤٥هـ - ١٣٦٥ - ١٤٤١م] عن هذا الاستعلاء والاستقواء النصرانى بالتتار، فقال: «واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرماناً من «هولاكو» بالاعتناء بأميرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخرم فى نهار رمضان، ورشوه على ثياب المسلمين فى الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع عن القيام للصليب،

وصاروا يمشون به فى الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم، وقالوا جهرا: «ظهر الدين الصحيح، دين المسيح»، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لنائب «هولاكو» - وهو «كنغا» - فأهانهم وضرب بعضهم، وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم!». .

وأمام هذه الخيانة، والاحتفاء بالعدو الغازى، وإهانة واضطهاد الأقلية للأغلبية. . ما كان من السلطان «قطز» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] إلا أن أوقع بنصارى دمشق، وترك الناس «فخربوا دورهم ونهبوها»^(١٩)، عقب الانتصار على التتار فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م].

ولقد تكرر مشهد الغواية والخيانة فى مطلع العصر الحديث، عندما جاء بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على رأس الحملة الفرنسية لغزو مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] وألقى حبال الغواية لأبناء الأقليات الدينية، ووقع فى هذه الحبال نفر من أقباط مصر - خانوا أمتهم وطائفهم وكنيستهم - قادهم «المعلم يعقوب حنا» [١٧٤٥ - ١٨٠١م]، وكونوا «فيلقا قبطيا»، تزيّا بزى الجيش الفرنسى، وحارب المصريين وأذلهم لحساب الفرنسيين. . ولقد تحدث مؤرخ العصر «الجبرتى» [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ - ١٧٥٤م] عن صنيع «بونايرت» مع هذه القلة الخائنة، عندما جعل لهم نصف عضوية «ديوان المشورة»، والسلطة الفعلية فى الجهاز المالى والإدارى. . وبعبارة الجبرتى، فلقد فوض الجنرال «كليير» [١٧٥٣ - ١٨٠٠م] للجنرال يعقوب «أن يفعل بالمسلمين ما يشاء. . حتى تطاول النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصالح مكاناً!! وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!!»^(٢٠).

فكان السقوط فى شرك الغواية الاستعمارية من أكثر أسباب التوتر الطائفى تأثيراً، فى الفترات العارضة التى شابت فيها هذه التوترات تلك الوحدة التى حققها الإسلام مع الآخر الدينى - فى الأمة. . والدولة. . ومقومات الهوية الوطنية والحضارية - على امتداد تاريخ الإسلام. .

-٣-

الواقع المعاصر للأقليات.. والتحديات المحيطة بها

● لقد تعمدنا في هذه الدراسة أن يكون الرجوع دائماً إلى المصادر المتخصصة، والمعتمدة، والتي كتبها علماء وباحثون مشهود لهم بالأمانة والموضوعية ورسوموهم القدم في تخصصاتهم. . وتعمدنا كذلك، عندما نكون بإزاء قضية خلافية يدور حولها جدل كبير وأن تكون المصادر التي نحتكم إليها قد كتبها علماء وباحثون غير مسلمين! . .

صنعنا ذلك ونحن نبحث مكانة ونفوذ وموقع غير المسلمين في الحضارة والتاريخ والدول والمجتمعات الإسلامية. . وكذلك عند بحث أسباب التوترات الطائفية التي مرت بها الأقليات غير المسلمة في بعض فترات التاريخ الإسلامي، ببعض المجتمعات الإسلامية. .

ونصنع ذلك الآن، ونحن نريد حسم قضية يثور حولها جدل كبير وتشكيك كثير، وهى قضية عدد الأقليات غير المسلمة في أقطار الوطن العربى خاصة، ودول العالم الإسلامى بوجه عام. .

أما المصادر المتخصصة فى «السكان - الديموجرافيا»، والتي كتبها علماء وباحثون غير مسلمين، والتي اعتمدنا عليها فى حسم هذه القضية المثيرة للجدل. . فهى:

١ - [أطلس معلومات العالم العربى] الذى كتبه اللبناني المسيحى «رفيق البستاني»، والفرنسى المسيحى «فيليب فارغ»، والمطبوع سنة ١٩٩٤م.

٢ - وكتاب [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] والذى كتبه عالمان متخصصان فى «الديموجرافيا»، والصادر عن مؤسسة فرنسية متخصصة فى الأبحاث والدراسات «الديموجرافية»، هما: «فيليب فارج»، و«يوسف كرجاج». . . والمطبوعة ترجمته العربية سنة ١٩٩٤م.

وكلا المصدرين تتابع إحصاءاتهما الواقع «السكانى - الديموجرافى» حتى سنوات الطبع. . . أى ما يقرب من منتصف تسعينيات القرن العشرين. . .

● ومن خلال هذه المصادر العلمية المتخصصة فإن:

١ - تعداد النصارى العرب، فى كل أقطار الوطن العربى، بمذاهبهم وطوائفهم وكنائسهم المختلفة هو ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة. . . وأن متوسط نسبة النصارى فى سكان الشرق الأوسط - العرب وتركيا - هو ٣,٨٪.

٢ - وتعداد اليهود فى أقطار الوطن العربى هو ١٣,٠٠٠ نسمة - فى بعض الإحصاءات - و٢٠,٠٠٠ نسمة فى إحصاءات أخرى - ولعل السبب فى الاختلاف هو الهجرات المتحركة لهذه الأقليات اليهودية نحو إسرائيل. . .

٣ - أما الأقليات الأرواحية (الوثنية)، فى جنوب السودان، فإن تعدادها هو ٥,٨٠٠,٠٠٠ نسمة.

٤ - ولما كان الجدل الأكثر، فى إحصاء أعداد غير المسلمين، إنما يدور حول عدد الأقباط النصارى فى مصر، والذين يمثلون أكبر الأقليات النصرانية فى الواقع العربى، فلقد اهتمت هذه المصادر المتخصصة بالوقوف عندها، وخسم قضية تعدادها.

ولقد جاء فى [أطلس معلومات العالم العربى] - ص ٣٢ - تحت عنوان [أقباط مصر] ما يلى:

«كم عددهم؟ كم عدد أكبر طائفة مسيحية فى الشرق؟ هل يبلغ أكثر قليلاً من ثلاثة ملايين، كما يمكن استنتاجه من آخر تعداد للسكان؟ أم هل يرتفع عددهم إلى ٥ أو ٦ أو حتى ٧ ملايين، كما تؤكد بعض الهيئات القبطية؟

إن التفاوت في التقدير أمر غريب في بلد تتوفر فيه الإحصاءات بغزارة. فمصر، على عكس بعض بلدان المنطقة، لا تبخل بالمعلومات عن سكانها، إذ تجرى التعداد بصفة منتظمة منذ سنة ١٨٨٢م - [أى فى ظل الاحتلال الإنجليزي، وغلبة الموظفين الأقباط فى إدارات الإحصاء] - وجاء - [التعداد] - بحصيلة لا بأس بها من المعلومات، وهى حصيلة قابلة للتحقق منها، وللمطابقة بينها وبين غيرها.

ومع هذا فإن الجدل حول هذا الموضوع مازال قائماً، فالطائفة القبطية تقول: إن تقرير عدد الأقباط بنسبة ٦٪ من عدد السكان الكلى، كما تشير إلى ذلك الإحصاءات الرسمية، فيه تقليل من عددهم.. ولكننا نلاحظ أن التعدادات التى أجريت فى عهد الاستعمار، تؤكد هذه الأرقام الرسمية، ونلاحظ تناقصاً طفيفاً فى نسبة عدد الأقباط، كما يتبين من التعدادات المتتالية:

إذ كانت نسبة الأقباط أعلى قليلاً من ٨٪ من العدد الكلى للسكان فى مصر، فيما بين عامى ١٩٠٧، ١٩٣٧م، ثم هبطت إلى ٩, ٧٪ فى تعداد سنة ١٩٤٧م، وإلى ٣, ٧٪ فى سنة ١٩٦٠م - [بعد جلاء القوات الأجنبية وعدد كبير من الذين أصابتهم قوانين الإصلاح الزراعى وتمصير الشركات] - ٩, ٥٪ فى سنة ١٩٨٦م. وليس هناك أى استثناء فى هذا المنحنى الهابط بانتظام، مما يوحى بأنه ليس هناك افتعال فى هذه الظاهرة.

إن أقباط مصر، شأنهم فى ذلك شأن مسيحي الشرق الآخرين، سبقوا المسلمين إلى تخفيض عدد المواليد، ولذلك قد هبطت نسبة عدد الأقباط بالنسبة للعدد الكلى من ٣, ٧٪ فى سنة ١٩٦٠م إلى ٩, ٥٪ فى عام ١٩٨٦م..».

بهذا المنطق العلمى، وبالحقائق الإحصائية تناولت هذه المصادر - التى كتبها متخصصون غير مسلمين - حسم هذه القضايا التى يدور حولها الجدل، وتثار بصدها الشكوك.

٥ - وهذه الأقليات النصرانية العربية - ٧, ٠٠٠, ٠٠٠ نسمة - موزعة على عشر طوائف رئيسية... يوضحها هذا الجدول:

| رقم | الطائفة | عددتها | ملاحظات | رقم | الطائفة | عددتها | ملاحظات |
|-----|-------------------|-----------|---------|-----|--------------------|---------|---------|
| ١ | الأقباط الأرثوذكس | ٣,٠٠٠,٠٠٠ | | ٦ | الكلدان | ٥٠٠,٠٠٠ | |
| ٢ | الروم الأرثوذكس | ٨٠٠,٠٠٠ | | ٧ | السيريان الكاثوليك | ١٥٠,٠٠٠ | |
| ٣ | الأرمن الكرجيون | ٣٠٠,٠٠٠ | | ٨ | الأقباط الكاثوليك | ١٠٠,٠٠٠ | |
| ٤ | اليقويون (سوريا) | ١٧٠,٠٠٠ | | ٩ | الأرمن الكاثوليك | ٧٥,٠٠٠ | |
| ٥ | النسطوريون | ٥٠,٠٠٠ | | ١٠ | الروم الكاثوليك | ٤٠٠,٠٠٠ | |

٦ - أما النسبة المئوية لهؤلاء النصارى العرب مقارنة بمواطنيهم المسلمين ، في الأقطار العربية . فيوضحها الجدول الآتي^(٢١) :

| رقم | الدولة | نسبة المسلمين | نسبة النصارى | ملاحظات | رقم | الدولة | نسبة المسلمين | نسبة النصارى | ملاحظات |
|-----|------------------|---------------|--------------|-----------|-----|-----------|---------------|--------------|---------|
| ١ | الأردن | %٩٥,٨ | %٤,٢ | | ١١ | العراق | %٩٨,٦ | %١,٤ | |
| ٢ | الإمارات العربية | %١٠٠ | | | ١٢ | عمان | %١٠٠ | | |
| ٣ | البحرين | %١٠٠ | | | ١٣ | فلسطين | %٩٦,٢ | %٣,٨ | |
| ٤ | تونس | %٩٩ | %١ | | ١٤ | قطر | %١٠٠ | | |
| ٥ | الجزائر | %٩٩ | %١ | | ١٥ | الكويت | %١٠٠ | | |
| ٦ | جيبوتي | %١٠٠ | | | ١٦ | لبنان | %٦٠ | %٤٠ | |
| ٧ | المملكة السعودية | %١٠٠ | | | ١٧ | ليبيا | %١٠٠ | | |
| ٨ | السودان | %٧٢ | %٤ | %٢٤ وثنون | ١٨ | مصر | %٩٤,٣ | %٥,٧ | |
| ٩ | سوريا | %٩٣,٦ | %٦,٤ | | ١٩ | المغرب | %٩٨ | %٢ | |
| ١٠ | الصومال | %١٠٠ | | | ٢٠ | موريتانيا | %١٠٠ | | |
| | | | | | ٢١ | اليمن | %١٠٠ | | |

٧ - أما نسبة غير المسلمين إلى المسلمين في أقطار منظمة المؤتمر الإسلامي - غير العربية - فيوضحها الجدول الآتي^(٢٢) :

| رقم | الدولة | نسبة المسلمين | نسبة غير المسلمين | ملاحظات | رقم | الدولة | نسبة المسلمين | نسبة غير المسلمين | ملاحظات |
|-----|-------------|---------------|-------------------|---------------------------------|-----|-------------|---------------|-------------------|-----------------|
| ١ | أفغانستان | ٩٩٪ | ١٪ | | ١٣ | تشاد | ٤٥٪ | ٥٥٪ | |
| ٢ | أندونيسيا | ٩٠٪ | ١٠٪ | | ١٤ | الجابون | ١٦٪ | ٨٤٪ | |
| ٣ | إيران | ٩٩٪ | ١٪ | | ١٥ | جامبيا | ٩٠٪ | ١٠٪ | |
| ٤ | باكستان | ٩٧٪ | ٣٪ | | ١٦ | جزر القمر | ٩٩٪ | ١٪ | |
| ٥ | بروناي | ٦٧٪ | ٣٣٪ | | ١٧ | السنگال | ٩٢٪ | ٨٪ | |
| ٦ | بنجلاديش | ٨٣٪ | ١٧٪ | | ١٨ | سيراليون | ٤٠٪ | ٦٠٪ | |
| ٧ | تركيا | ٩٩, ٢٪ | ٠, ٢٪ | | ١٩ | غينيا | ٨٥٪ | ١٥٪ | |
| ٨ | المالديف | ١٠٠٪ | | | ٢٠ | غينيا بيساو | ٣٠٪ | ٧٠٪ | منهم ٥٪ مسيحيون |
| ٩ | ماليزيا | أغلبية | | كل المالايين، زائد الباكستانيين | ٢١ | الكاميرون | ٢٠٪ | ٨٠٪ | |
| ١٠ | أوغندا | ١٦٪ | ٨٤٪ | | ٢٢ | مالي | ٩٠٪ | ١٠٪ | |
| ١١ | بنين | ٤٧٪ | ٥٣٪ | | ٢٣ | النيجر | ٩٧٪ | ٣٪ | |
| ١٢ | بوركينافاسو | ٥٠٪ | ٥٠٪ | | ٢٤ | نيجيريا | ٥٠٪ | ٥٠٪ | |

٨ - أما توزيع الأقليات اليهودية، في أقطار العالم العربي، فيوضحها الجدول التالي (٢٣):

| رقم | الدولة | عدد اليهود | ملاحظات | رقم | الدولة | عدد اليهود | ملاحظات |
|-----|--------|------------|---------|-----|---------|------------|---------|
| ١ | سوريا | ٠, ٨٠٠ | | ٦ | ليبيا | ٠, ٢٠٠ | |
| ٢ | لبنان | ٠, ٦٠٠ | | ٧ | تونس | ٢, ١٠٠ | |
| ٣ | العراق | ٠, ٩٠٠ | | ٨ | الجزائر | ٢, ١٠٠ | |
| ٤ | اليمن | ١, ٠٠٠ | | ٩ | المغرب | ٧, ٨٠٠ | |
| ٥ | مصر | ٠, ٥٠٠ | | | | | |

هذا عن التعداد المعاصر للأقليات غير المسلمة فى الوطن العربى وبقية دول منظمة المؤتمر الإسلامى . .

● أما عن التحديات التى تواجه هذه الأقليات فى واقعنا الراهن . . فإنها - فى الحقيقة هى التحديات التى تواجه الأمة . . فقوى الهيمنة الغربية تريد أن تجعل من هذه الأقليات «أوراق ضغط» و«ثغرات اختراق وتدخل» لإعاقة تقدم الأمة - كل الأمة - ونهوضها وانعتاقها وانبعائها الحضارى . . إنها التحديات التى تعيد، مرة أخرى، قصة الغواية الاستعمارية، ومشاريع «الحماية» التى حاولتها قوى الغزو والاستعمار مع هذه الأقليات تاريخياً، تحاولها الآن قوى الهيمنة الغربية، وفى المقدمة منها «العولة الأمريكية»، وذلك من خلال المخططات الاستعمارية المعلنة لتفتيت الأمة - أكثر مما هى مفتتة - وتحويل كياناتها القطرية إلى «كيانات ورقية وفيسفائية» بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية . .

وهناك حقيقة يلمسها الدارس لمراحل وألوان هذه المخططات الاستعمارية الحديثة والمعاصرة للعب بأوراق الأقليات فى وطن العروبة وعالم الإسلام، هى وجود الأصابع الصهيونية فى كل هذه المخططات والمحاولات . .

فمنذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربى، قلب العالم الإسلامى، بواسطة حملة «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] كان الإعلان عن مخطط العمل على استخدام الأقليات فى مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن «بونابرت» - وهو فى الطريق البحرى من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» - عزمه على تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات غير المسلمة، ليكونوا مواطنى أقدام وثغرات اختراق تعيينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية . . وأثناء حصاره لمدينة «عكا» الفلسطينية سنة ١٧٩٩م - فى الذكرى السبعمئة لاحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٧م!! - أصدر «بونابرت» نداءه إلى الأقليات اليهودية فى العالم، كى تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعمارى، مقابل أن يساعدها على احتلال فلسطين^(٢٤) .

ومنذ ذلك التاريخ، اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات

لا أخلاقية، وذلك عندما وظفت نفسها فى خدمة الحضارة الغربية التى اضطهدت اليهود طوال تاريخهم، ضد الحضارة الإسلامية التى أكرمتهم طوال تاريخها!!.. فبدأت «الشراكة» بين الصهيونية وبين الاستعمار الغربى منذ ذلك التاريخ.. الصهيونية تحلم بالخلاص من اضطهاد الغرب لليهود، على حساب العرب والمسلمين!.. والغرب الاستعمارى يريد تحقيق «حزمة» من الأهداف.. فهو يريد الخلاص من اليهود، الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم سرطانات فى جسم حضارته المسيحية، وذلك بقذفهم إلى قلب الوطن العربى، يقيم بواسطتهم قاعدة لحضارته، وآلة حربية ضد أحلام العرب فى التقدم والنهوض.. والبروتستانتية الغربية قد رأت فى هذا المشروع «الصهيونى - الاستعمارى» تحقيقاً لنبوءة أسطورية تتحدث عن عودة السيد المسيح، عليه السلام، ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، عندما يُحشر اليهود فى فلسطين، ويقيمون «الهيكل الثالث» على أنقاض المسجد الأقصى، وتحدث معركة «هرمجدون»، التى يباد فيها المسلمون^(٢٥)!!..

وعندما هزم المصريون حملة «بوناپرت»، وتبددت أحلامه، وأصبحت القيادة - فى المشروع الاستعمارى الغربى لإنجلترا، نقل الصهاينة «قبلتهم».. وشراكتهم» إلى الاستعمار الإنجليزى، وتولت إنجلترا رعاية هذه «الشراكة»، وتوظيف الأقليات اليهودية ضد العرب والمسلمين.

وفى مواجهة مشروع «مصر - محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ - ١٧٧١ م - ١٨٤٩ م] لتجديد شباب الشرق، وإنقاذه من الضعف العثماني، للحيلولة دون نجاح مخططات الاستعمار الغربى، سعت إنجلترا إلى الدولة العثمانية كى تسمح بزرع اليهود فى فلسطين، لإعاقة المشروع النهضوى لمحمد على باشا، وطلب «بلمرستون» [١٧٨٤ - ١٨٦٥ م] وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٤٠ م من سفيره فى «الآستانة» أن يقنع السلطان العثمانى بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين «حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد على باشا ونواياه والأغراض التى قد تخطر بباله أو بال من يخلفه»^(٢٦)!!..

ولم تخرج فرنسا الاستعمارية من الساحة نهائياً - بهزيمة نابليون - فهى قد تولت تحويل الأقلية المارونية فى لبنان - بواسطة التغريب الثقافى ومدارس الإرساليات التبشيرية - إلى ثغرات اختراق، لتحويل قبله هذه الأقلية - وغيرها - إلى الغرب،

بدلاً من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام.. وذلك وصولاً إلى «جعل البربرية العربية - [كما قالوا] تنحني لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوروبا..»^(٢٧).

كما تولت فرنسا - في المغرب العربي - اللعب بورقة الأقلية الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعي الفرنسي، بدلاً من الشريعة الإسلامية، وإلحاقها - لغوياً وثقافياً - بالفرنسية والفرنكفونية، بدلاً من هويتها الحضارية العربية الإسلامية..

ولقد كانت «الشراكة» الاستعمارية الصهيونية، والأصابع اليهودية حاضرة وفاعلة، دائماً وأبداً، في كل هذه المراحل لتنفيذ هذا المخطط الاستعماري للعب بأوراق الأقليات في بلادنا العربية والإسلامية.. ولقد زاد وضوح الدور الصهيوني في هذا المخطط وهذه التحديات منذ أن تجسّد الحلم الصهيوني في الكيان الإسرائيلي سنة ١٩٤٨م، فرأينا الكتابات الصهيونية تضع مخططات تفتت الشرق العربي والإسلامي، بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية، باعتبار هذا التفتت هو التعميم لمشروع الأقلية اليهودية في إقامة كيانها السياسي الخاص.. وباعتبار أن هذا التفتت هو الضمان لأمن الكيان الصهيوني، الذي لا بقاء له ولا مستقبل في ظل الوحدة العربية والجامعة الإسلامية.. لقد تصاعد إغراء الأقليات باختيار الطريق الصهيوني: عض اليد العربية الإسلامية، والتوجه غرباً، ضد العروبة والإسلام، وربط مستقبل هذه الأقليات بالهيمنة الاستعمارية الغربية، بدلاً من المشروع النهضوي للعرب والمسلمين!

ومنذ أكثر من نصف قرن، وبالتواكب مع إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين - قاعدة عنصرية استعمارية غربية - لإعاقة تقدم أمتنا ووحدتها.. أعلن المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» Bernard Lewis مخطط التفتت للأمة الإسلامية، بواسطة الأقليات.. والذي نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - Executive Intelligence researchproject وفيه يدعو إلى إضافة أكثر من ثلاثين كيانا انفصالياً، على أساس ديني ومذهبي وعرقي (إثني)، تضاف إلى التجزئة التي أحدثتها اتفاقية «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦م.. وبنص عبارات هذا المستشرق الصهيوني «فإن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة

الصراع، فما هو على السطح يتناقض مع ما هو فى العمق، على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن فى العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة فى هذه الدول، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة»!.

وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفتيت العالم الإسلامى - من باكستان إلى المغرب - على أسس دينية ومذهبية وعرقية، خلص إلى الهدف الصهيونى من وراء هذا التفتيت، فقال: «.. ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها.. ونظرا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»^(٢٨)!.

فالمطلوب هو استخدام الأقليات لتفتيت العالم الإسلامى إلى كيانات ضعيفة، لضمان الأمن والتفوق للكيان الصهيونى، الموظف فى خدمة المشروع الإمبريالى الغربى الكبير!.

ولقد تحول هذا التخطيط «الاستعمارى - الصهيونى» إلى الممارسة والتطبيق، على أيدى «ديفيد بن جوريون» [١٨٨٦ - ١٩٧٣ م] و«موشى شاريت» [١٨٩٤ - ١٩٦٥ م] و«موشى ديان»، فى حقبة خمسينيات القرن العشرين، ابتداء بالأقلية المارونية فى لبنان، وطموحًا إلى تعميمه خارج لبنان.. وكتب «شاريت» - فى مذكراته - عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات فى بلادنا، يقول إنها:

«أولاً: تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات فى العالم العربى..

وثانياً: إذكاء النار فى مشاعر الأقليات المسيحية فى المنطقة وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامى!!.. فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابى، لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر»^(٢٩)!

وفى مرحلة ثمانينيات القرن العشرين، ورغم الحديث عن «السلام.. والتسوية.. وتطبيع العلاقات»، بعد المعاهدة المصرية - الإسرائيلية سنة ١٩٧٩ م.. نجد أن هذا المخطط التفتيتى لعالمنا الإسلامى، بواسطة الأقليات، هو من «الثوابت» الاستعمارية الصهيونية، التى لا تتأثر «بالمتغيرات»، حتى ولو سميت هذه المتغيرات «بالسلام.. وتطبيع العلاقات»!.

ففى المحاضرة التى ألقاها «أرييل شارون» - وكان يومئذ وزيراً للدفاع - فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١م - والتى نشرتها مجلة «معاريف» - نراه يقول: «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوى إلى أطراف الاتحاد السوفيتى شمالاً، والصين شرقاً، وأفريقيا الوسطى جنوباً، والمغرب العربى غرباً.. وهذا المجال الحيوى عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة».

ثم يواصل «شارون» الحديث عن مشروعات تفتيت العالم الإسلامى، بواسطة الأقليات - على النحو الذى سبقه إليه «برنارد لويس» حتى يكون هذا العالم الإسلامى «مجالاً حيويًا لإسرائيل»^(٣٠).

وفى ذات الحقبة - ثمانينيات القرن العشرين - تصوغ «المنظمة الصهيونية العالمية» هذا المشروع التفتيتى تحت عنوان: «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات»، وتنشره فى مجلتها الفصلية «كيفونيم» Kivunim [الاتجاهات] - فى عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢م - . وفى ثنايا هذا المخطط الاستراتيجى، تتحدث عن النجاحات التى حققتها إسرائيل فى لبنان - إبان الحرب الأهلية اللبنانية [١٩٧٥ - ١٩٨٩م] بواسطة قطاع من الأقلية المارونية - المارونية السياسية - باعتباره النموذج الواجب التعميم مع كل الأقليات. . فتقول «المنظمة الصهيونية العالمية»: «إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربى بأسره، بما فى ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية.. إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منهما - [فى المغرب] - لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفى أثر مصر فى انهيارها وتفتتها، فمتى تفتت مصر تفتت الباقون - [!!!] - إن رؤية دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخى، الذى أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعداً فى المدى الطويل.

وإن تفتت سوريا والعراق لاحقاً إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية، على غرار لبنان، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل.. ولأن العراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل فى المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أى خطر، فهو

المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل في التفتيت، فتفتيت العراق هو أكثر أهمية من تفتيت سوريا..

وشبه الجزيرة العربية بأسره، مرشح طبيعي للانهييار، وأكثر اقتراباً منه، بفعل ضغط داخلي وخارجي، وهذا أمر غير مستبعد في معظمه، خصوصاً في السعودية..

والأردن هدف استراتيجي في المدى القصير.. فليس هناك أى إمكان بأن يبقى الأردن قائماً على صورته وبنيته الحاليتين في المدى الطويل. وينبغي أن تؤدي سياسة إسرائيل - حرباً أو سلماً - إلى تصفية الأردن بنظامه الحالي..».

ثم تخلص هذه «الاستراتيجية» - بعد التفصيل لمخطط التفتيت للعالم الإسلامي بواسطة الأقليات - إلى أن هذا هو «ضمان الأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل.. ففي العصر النووي لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكير، ويجب من الآن فصاعداً بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود»^(٣١)!

وفي حقبة التسعينيات - من القرن العشرين - تعود المؤسسات الصهيونية للتأكيد على «ثبات ثوابت هذه الاستراتيجية». . فيدعو «مركز بارايان للأبحاث الاستراتيجية» - التابع لجامعة بارايان الإسرائيلية - إلى ندوة، عقدت في ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م، وشاركت فيها وزارة الخارجية الإسرائيلية، بواسطة «مركز الأبحاث السياسية» التابع لها، وأسهم فيها باحثون من «مركز ديان»، التابع لجامعة «تل أبيب»، وذلك حول «الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية في منطقة الشرق الأوسط». . وقد ناقشت هذه الندوة أحد عشر بحثاً، دارت جميعها حول «تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية، والاعتبارات الكامنة وراءه» - وهذا هو عنوان أحد أبحاث هذه الندوة!..

ولقد خلصت أبحاث ومقررات هذه الندوة إلى أن «هذه الأقليات.. هي شريكة لإسرائيل في المصير، ولابد من أن تقف مع إسرائيل في مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تبدى استعداداً لمحاربتهم أو مقاومتهم، هي حليف وقوة لإسرائيل لتنفيذ سياسة الاستيطان والدولة التي مازالت في مرحلة التكوين»^(٣٢)!

ولقد تزامن مع اشتعال الحرب الطائفية فى لبنان - فى سبعينيات القرن العشرين - غواية عدد من الشباب القبطى المصرى بالاشتراك مع المارونية السياسية فى هذه الحرب! .. واجتذبت الأصابع الصهيونية فى أمريكا قطاعًا من أقباط المهجر - وخاصة فى أمريكا وكندا وأستراليا - لتكوين «الهيئات القبطية»، الداعية إلى ما تسميه «تحرير مصر القبطية من استعمار العروبة والإسلام»!! . حتى أفضت هذه الأنشطة الطائفية، المواكبة لهيمنة العولمة الأمريكية، والمدفوعة والمدعومة من «اللوبي الصهيونى»، ومنظمات وكنائس «التحالف المسيحى» و«المسيحية الصهيونية» . . حتى أفضت إلى إصدار «الكونجرس الأمريكى» فى أكتوبر سنة ١٩٩٩م، لقانون «الحريات الدينية الدولية»، الذى فرض الحماية الأمريكية على الأقليات الدينية - وخاصة فى العالم الإسلامى - وقنن لآليات إيقاع العقوبات الأمريكية على الدول التى لا ترضى عنها أمريكا فى هذا المجال! ..

وليس صدف أن صدور هذا القانون قد جاء ثمره لحملة إعلامية بدأها محام يهودى - هو «مايكل هوروفيتز» Michael Horowitz فى ٥ يوليو سنة ١٩٩٥م، ثم تلقفت الخيط المؤسسات والكنائس «المسيحية الصهيونية»، و«التحالف المسيحى» و«المحافظون الجدد» لتفضى هذه الحملة - الموجهة بالأساس إلى العالم الإسلامى - إلى قانون «الحماية والعقاب» - كما أسماه بحق الكاتب «سمير مرقص» - (٣٣) .

وليس صدف كذلك، أن تجد هذه المخططات «مراكز أبحاث»، ممولة من أمريكا والغرب، تركز على اللعب بورقة الأقليات فى بلادنا . . وتدعو إلى تطبيق ذات المخطط الذى دعا إليه «برنارد لويس» و«بن جوريون» و«موشى شاريت» و«موشى ديان» و«أرييل شارون» و«المنظمة الصهيونية العالمية» . . مخطط تفتت العالم الإسلامى إلى كيانات سياسية - نعم! سياسية - على أساس الدين والعرق والمذهب . . أى تحويل التنوع من نعمة ومصدر قوة إلى نقمة وتشردم وتفتت . . وتحويل الأقليات من لبنات فى بناء الأمة والأمن الوطنى والقومى والحضارى إلى ثغرات اختراق، وأسباب للانهيال والدمار . . فيكتب رئيس أحد أهم هذه «المراكز البحثية» يقول بالنص: «إن المجتمعات التى تتسم بالتعددية الإثنية فى الوقت الحالى ينبغى أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضاً» (٣٤)!! .

ومع هذه الغواية الأجنبية، التي استجابت لها ووقعت في شباكهها جمعيات وجماعات طائفية، تعيش في المهاجر، متعاونة مع الصهيونية وقوى الهيمنة الإمبريالية. . وقلة قليلة من غلاة العلمانيين والطائفين في الداخل، يستخدم المخطط الغربي - وخاصة الأمريكي - السلاح الاقتصادي في إذكاء الصراع الطائفي، فبواسطة المعونات الأمريكية الموجهة إلى القطاع الخاص، وتوكيلات الاستيراد والتصدير، والمعونات الموجهة للمشروعات التنموية الصغيرة، يتم التمييز الطائفي، لإيجاد واقع اجتماعي يمزقه «ثراء الأقلية» و«حرمان الأغلبية»!، لا حُبًّا في سواد عيون الأقلية، وإنما لتأجيج الصراع الطبقي ذي الطابع الطائفي، تكراراً للتجربة التي سبق وصنعها الاستعمار - وآت ثمراتها - في لبنان - إغناء الأقلية المارونية وإفقار الأكثرية المسلمة، وخاصة الشيعة منها! - الأمر الذي أحدث - في لبنان - ويحدث الآن تراجعاً للسماحة والتسامح، و«فرزاً طائفيًا» على نحو غير معهود. . كما يخلق ضيقًا «بالآخر» وتضييقًا على بعض حقوقه الطبيعية والمشروعة، كالحال مثلاً في موقف العامة والجمهور من بناء دور العبادة في بعض البلاد، بينما النهج الإسلامي يفتح الطريق أمام الحريات في هذه الميادين، حتى ليحض الدولة على إعانة غير المسلمين في بنائها. .

وإذا كان هذا «التمييز الاقتصادي» مما يعترف به العقلاء، حتى ليقول «الأنبا موسى» - أسقف الشباب في الكنيسة الأرثوذكسية المصرية وهو من عقلاء وحكماء هذه الكنيسة: «إن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية. . فهم أطباء وصيادلة ومهندسون، وغيرها من المهن، ونسبتهم في رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية في مصر..»^(٣٥).

فإن هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية المستفزة تشير إليها أرقام وإحصاءات رصدتها مصادر علمانية تقول: إن الأقلية النصرانية في مصر - والتي تقل نسبتها في السكان عن ٦٪. . والتي كان يصفها الشيخ محمد الغزالي [١٣٣٥ - ١٤١٦هـ ١٩١٧ - ١٩٩٦م] عليه رحمة الله بأنها «أسعد أقلية في العالم» - تملك من ثروة مصر ما بين ٣٥٪ و ٤٠٪! . . فهي تملك وتمثل:

- ٢٢.٥٪ من الشركات التي تأسست ما بين سنة ١٩٧٤م وسنة ١٩٩٥م -

سنوات الانفتاح والمعونات الأمريكية! ..

- ٢٠٪ من شركات المقاولات فى مصر ..
- ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية ..
- ٦٠٪ من الصيدليات ..
- ٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة ..
- ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية ..
- ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين) ..
- ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين ..
- ٢٠٪ من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادى بمصر ..
- أكثر من ٢٠٪ من المستثمرين بمدينتى السادات والعاشر من رمضان ..
- ١٥٩٪ من وظائف وزارة المالية المصرية ..
- ٢٥٪ من المهن الممتازة والتميزة - الصيدالة .. والأطباء .. والمهندسين .. والبيطريين .. والمحامين .. (٣٦).

وذلك فضلاً عن أن هذه الأقلية نادراً ما يعانى أحد منها من المشكلات التى تطحن سواد الأغلبية - البطالة .. والامية .. وأزمات الزواج .. والإسكان .. إلخ .. إلخ ..

ومع كل ذلك تصدر القوانين الأمريكية لحماية «أسعد أقلية فى العالم»! .. ويأتى أعضاء الكونجرس الأمريكى والدبلوماسيون الأمريكيون والغربون «ليفتشوا» عن أحوالهم، ويرفعون التقارير التى تتحدث عن «اضطهادهم»!! .. وتطلب توقيع العقوبات على مصر وشعبها، وفق القانون الأمريكى - قانون «الحماية .. والعقاب»! - وتصدر «الهيئات القبطية» فى المهجر الكتب والنشرات، داعية إلى تحرير هذه الأقلية من العروبة والإسلام! ..

هذا هو «الفعل الاستعمارى» فى المسألة الطائفية .. وتلك هى «ردود الأفعال»

على هذه التحديات . . فى تطبيقاتها على الأقلية القبطية فى مصر . . وهى أكبر الأقليات النصرانية العربية عددًا . . وأهم «الأوراق» التى يحاول الغرب اللعب بها! . .

وإذا كنا نحذر من «الفعل الاستعمارى» و«النزعة الطائفية الانعزالية»، التى تعمل على إحياء اللغة القبطية - كما أحييت الصهيونية العبرية - كى تحل محل اللغة العربية، التى هى اللغة الوطنية والقومية والحضارية للأمة كلها، على اختلاف أديانها! . . فإننا ندعو إلى أن تتحمل الأغلبية مسئولياتها الكبرى فى مواجهة هذه التحديات، وفى قطع الطريق على مخططاتها . . وذلك عن طريق:

١ - حل المشكلات الحقيقية التى تعانى منها الأقليات، باعتبارها جزءاً من الأمة، وباعتبار مشكلاتها جزءاً من مشكلات الأمة . .

٢ - وإدارة حوار داخلى بين «الحكماء»، لتحديد وتمييز «المظالم» الحقيقية من «الأحاسيس الزائفة أو المتضخمة بالظلم»! . . فالحكماء، فى مختلف الفرقاء، كثيرون، وهم الممثلون للأغلبية . . وحوارهم هو السبيل لقطع الطريق على القلة العميلة والمعادية، التى صنعها ويغذيها الاستعماريون والصهاينة . . وقطع الطريق على الغلو الدينى عند مختلف الأطراف . .

٣ - وإعمال المنهاج الإسلامى فى «مداواة الجراح»، بدلاً من «توسيع هذه الجراح» . . فمن الخطأ والخطيئة الاكتفاء «بردود الأفعال»، وخاصة تلك التى تصدر عن العامة والجماهير . . فالتحصين ضد الغوايات، وإقالة العثرات هو الأولى بالاتباع، وليس تصيد الأخطاء . .

وعلىنا أن نتذكر ما صنعه الأمة - قبل قرنين من الزمان - عندما نجحت غواية الحملة الفرنسية على مصر فى اجتذاب «المعلم يعقوب حنا» و«الفيلق القبطى» الذى قاده . . فسقطوا فى حظيرة الخيانة لأمتهم وطائفتهم وكنيستهم . . فلقد صدر العفو - بعد هزيمة هذه الحملة سنة ١٨٠١م - عن الذين استجابوا لهذه الغواية . . وصدرت «الفرمانات السلطانية» التى أعلنت هذا العفو، والتى تحذر من الانتقام، ومن فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة . . ولقد تحدث «الجبرتى» عن هذا المنهاج

فى مداواة جراح تلك الغواية ، فقال: «لقد نودى بأن لا أحد يتعرض بالأذى لنصرانى ولا يهودى، سواء كان قبطياً أوروبياً أو شامياً، فإنهم من رعايا السلطان.. والماضى لا يُعاد.. وكُتبت فرمانات، وأُرسلت إلى البلاد - [فى الأقاليم] - مضمونها: الكف عن أذى النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفى ضمنها - [أى فرمانات] - آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تداخلهم مع الفرنساوية: صيانة أعراضهم وأموالهم.. كما قرئت فرمانات.. فيها: التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم»^(٣٧)..

فالأقليات جزء أصيل من نسيج الأمة، لهم كل ما للأمة من الحقوق، وعليهم جميع ما عليها من الواجبات.. ومسئولية الأغلبية فى صد الغوايات، ومعالجة جراحاتها أكبر بكثير من مسؤولية الأقليات..

هكذا بدأ.. واستمر.. ويتم اللعب بأوراق الأقليات الدينية.. والقومية - غير المسلمة، وأيضاً المسلمة - فى وطن العروبة وعالم الإسلام.. وهكذا يجب الوعى بمخاطر هذه التحديات التى تواجه وحدة الأمة وتقدمها..

- ٤ -

نظرة إلى المستقبل

وإذا كانت هذه هي التحديات التي تواجه الأقليات في واقعنا الراهن . . ويواجه بها المشروع «الاستعماري - الصهيوني» أمتنا، محاولاً استخدام «أوراق» هذه الأقليات لتفتيت الأمة، فما هو الحل الذي نواجه به هذه التحديات؟؟ . .

إننا إذا استثنينا «حل» التجزئة والتفتيت للأمة، على أسس دينية ومذهبية وقومية - لأنه ليس «حلاً»، وإنما هو «المشكلة والتحدى» . . فإن هناك مشروعين يتم الحديث عنهما لتحقيق التحصين لجسد الأمة ضد هذه التحديات:

أولهما: الحل العلماني، الذي يبشر به العلمانيون، والذي يتصور أصحابه أن «العلمانية» - التي تستبعد المرجعية الإسلامية من السياسة والدولة والقانون والدستور ومشروع النهضة - هي «الحل لمشكلة الأقليات» في بلادنا، كما مثلت - برأيهم - الحل لهذه المشكلة في النموذج الحديث والمعاصر للمجتمعات الغربية . .

وثانيهما: هو الحل الإسلامي، الذي بدأ به الإسلام التعامل مع «الآخر»، كل ألوان «الآخر»، والذي حوّل الإسلام به هذا «الآخر» إلى جزء من «الذات»، ذات الدين الإلهي الواحد، في ظل المرجعية الإسلامية الواحدة . . وهو النموذج والحل الذي تحدثنا عنه في القسم الثاني من هذه الدراسة . . والذي كان له الفضل في إنقاذ أهل الديانات الأخرى من الإبادة، حتى لكأن وجودها وبقائها في الشرق هو «هبة» هذا الحل الإسلامي . . كما أنه هو الحل الذي عرفته الأمة، واندمج به «الآخرون» مع المسلمين في أمة واحدة، عبر هذا التاريخ الطويل . .

ولما كنا قد سبق وانتقدنا ورفضنا وفندنا «الحل العلماني» في عدد من كتبنا^(٣٨) . . فإننا نكتفى، في هذا المقام، بالإشارة إلى أن العلمانية قد مثلت وتمثل «المأزق»،

وليس «الحل» لما يسمى «بمشكلات الأقليات».. فالعلمانية وافد غربي، يستبعد المرجعية الإسلامية، التي هي هوية الأمة، والتي تتمسك بها الأغلبية وقطاعات واسعة من الأقليات^(٣٩).. فاستبدال العلمانية بالمرجعية الإسلامية، هو - في الحقيقة - بمثابة فرض قطاع محدود من الأقلية - أى أقلية الأقلية! - رأيه على أغلبية الأمة!.. ونحويل هذه الشريحة إلى «قيتو» ضد أغلبية الأمة وهويتها وتاريخها!.. وفي هذا تعميق للشقاق على أسس طائفية، وتحقيق لمقاصد التحديات، وليس حلاً نواجه به هذه التحديات.. فضلاً عن أنه نفى وإلغاء لجوهر الديمقراطية، التي يجتمع حولها ويتمسك بها الجميع، والتي تعطى الوزن المناسب لرأى الأغلبية فى تحديد مقومات المجتمع، طالما أنها لا تنتقص من عقائد الأقليات وحقوقها.. وفوق كل ذلك، فإنه يبدو غريباً الدعوة إلى العلمانية - وهى وافد غربي - لحل مشكلة الأقليات، بعد أن سقطت وأفلست كل الحلول الغربية الوافدة، التي أضاعت أمتنا قرنين من عمرها وهى تجرب النهوض وفق نماذجها!..

وإذا كان الحديث عن أقليات دينية، فإن المرجعية الإسلامية - التي عاشت فى ظلالها هذه الأمة أربعة عشر قرناً، كانت فى أغلبها «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض - ليست بديلاً لما تتدين به هذه الأقليات، حتى تكون تعدياً على حريتها فى الاعتقاد الدينى، لأن هذه المرجعية الإسلامية تترك هذه الأقليات وما تتدين به، وتقتصر تطبيقاتها على الجانب المدنى والقانونى والسياسى، الذى ليس له منازع فى النصرانية - التي تدع ما لقيصر لقيصر، وتقف عند ما لله، وخلاص الروح ومملكة السماء -.. ففقه المعاملات الإسلامى هو اجتهادات بشرية فى ظل منظومة القيم الإيمانية، التي لا تختلف باختلاف الشرائع السماوية المتعددة، والاجتهادات فيه مفتوحة أبوابها لكل أصحاب العطاء القانونى، على اختلاف الديانات التي يتدينون بها.. فكما جعل الإسلام شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم ينسخها التطور التاريخى، فتح الباب أيضاً أمام كل أبناء الأمة، على اختلاف مللهم ونحلهم، للإسهام فى البناء لحضارة الإسلام.. ومن ثم فهو يفتح كل الأبواب أمام كل عقول الأمة للإسهام فى بلورة المشروع النهضوى المتميز لهذه الأمة - الأقليات منها والأغليات -.. ومن هنا تصبح المرجعية الإسلامية، فيما وراء ما جاءت به النصرانية من عقائد، حلولاً «وطنية.. وقومية.. وحضارية» لكل أبناء الأمة،

تجمعهم على هوية حضارية واحدة، ومشروع نهضوى واحد، فيصبح نهوضهم المعاصر المنشود امتداداً لتاريخهم فى النهوض والازدهار الحضارى . . . ويصبح فقه «الشافعى» [١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠م] فقهها وطنياً بالنسبة لكل المصريين، لا يمكن أن يتقدم عليه فقه نابليون الذى جاء غازياً وقاهراً لكل المصريين . . . وكذلك الحال مع فقه «أبى حنيفة» [٨٠ - ١٥٠ هـ - ٦٩٩ - ٧٦٧م] فى العراق . . . وفقه الإمام مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ - ٧١٢ - ٧٩٥م] فى أقطار المغرب العربى . . . إن وطنية النصرانى الشرقى لا يمكن أن تفضل القانون الرومانى، قانون «جستيان» الذى اضطهد النصرانية الشرقية، على فقه «الليث بن سعد» [٩٤ - ١٧٥ هـ - ٧١٣ - ٧٩١م] الذى أفتى بأن بناء الكنائس هو من عمارة البلاد!

وأكثر من هذا . . . فلقد مثلت العلمانية - عندما طبقت فى تركيا، بعد إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م - نكبة على الأقليات الدينية والقومية، ولم تكن حلاً لمشكلاتها بأى حال من الأحوال، ويكفى أن نعلم أن نسبة النصارى فى سكان الخلافة العثمانية سنة ١٥٥٠م قد كانت ٨,٤١٪ . . . وأنها ظلت حتى بعد انفصال واستقلال بلاد البلقان تمثل ١٩,١٪ من السكان سنة ١٩١٤م . . . فلما جاءت العلمانية أجهزت على هذه الأقلية النصرانية، فلم يبق منها فى سنة ١٩٩١م سوى ٠,٢٪ من السكان! (١) . . . وحتى الاضطهاد، وما يقال عن «الإبادة» التى حدثت للأرمن سنة ١٩١٥م، فإن مرتكبيها هم العلمانيون من قادة «الاتحاد والترقى»، الذين انقلبوا على المرجعية الإسلامية للخلافة العثمانية! . . .

أما حال الأكراد، فى ظل هذه العلمانية التركية - التى يريدونها حلاً لمشكلات الأقليات - فهو لا يقل سوءاً - رغم إسلامهم - عن حال النصارى . . . فهم محرومون من الحديث بلغتهم، فضلاً عن التعليم والكتابة بها! . . . بل ومحرومون من أن يسموا أبناءهم وبناتهم بالأسماء التى يريدون! . . .

إن الأقليات - غير المسلمة . . . وكذلك المسلمة - قد عاشت وتعايشت وأمنت وازدهرت فى ظل المرجعية الإسلامية، فى ظل شريعة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» . . . ولم تعرف المشكلات إلا فى ظل الاستعمار وغواياته . . . وفى ظل العلمانية التى جلبها إلينا هذا الاستعمار . . . وصدق «الأبنا موسى» عندما قال عن

حال أقباط مصر فى ظل الخلافة العثمانية: «.. حينما نذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية، كانوا مع إخوانهم المصريين لهم دور مشترك.. وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح فى الحياة السياسية فى عهد محمد على..»^(٤١).

بل إن هذه العلمانية، ذات النشأة الأوروبية، قد تحولت إلى «مأزق أوربى»، همّش المسيحية فى أوربا، وجعل مجتمعاتها فراغًا دينيًا، انصرف فيه أغلبية الناس عن الإيمان الدينى، حتى لتغلق الكنائس وتباع!.. ثم عجزت هذه العلمانية عن أن تملأ هذا الفراغ، وتجيّب على أسئلة النفس الإنسانية التى يجيب عنها الدين.. وبشهادة القس الألماني - عالم الاجتماع - الدكتور «جوتفرايد كونزلن»: «.. فلقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقبة التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى. ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هى التى تصنع القانون.. وهى التى تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحى، يفهم الوجود بقوى دنيوية هى العقل والعلم.. لكن، وبعد تلاشى المسيحية فى أوربا، سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التى كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتُفكّك أنساقها - العقلية والعلمية - عدمية ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية فى أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحى فى أزمة.. فالإنهك الذى أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلمانى الحديث.. وتحققت نبوءة «نيتشة» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافى الغربى لأناس يفقدون [لجمهم] الذى فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»!..

لقد أزالَت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوربي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقاً!.. ففقد الناس «النجم» الذي كانوا به يهتدون»^(٤٢)!

هكذا تحدث «قسّ.. وعالم اجتماع» عن تحول العلمانية - في بلاد نشأتها - إلى مأزق، عندما هزمت الدين الإلهي، ثم لحقت الهزيمة «بدينها الطبيعي»، ففقد الناس «النجم الذي به يهتدون»!

فهل يريد العلمانيون - بسبب الأقليات الدينية - أن ندخل في هذا الطريق، وهذا «المأزق» الذي دخل فيه الغربيون؟!.. وألاً تفيق النصرانية في بلادنا، فتعلن رفضها «لكأس السم» الذي تجرّعته النصرانية الأوربية.. وتدرك أن منظومة القيم الإيمانية - التي تتفق فيها كل الأديان - لا بد أن تكون لها السيادة في حياتنا.. وأن الشريعة الإسلامية هي أرعى للنصرانية والنصارى من العلمانية والعلمانيين؟!..

وفي هذا الإطار، علينا أن نذكر ونذكر بالكلمات العاقلة والحكيمة التي رأت وترى «جوامع الإسلام» - في الشريعة والحضارة - باعتبارها «جوامع الأمة»، وليست «خصوصية» للمؤمنين بالإسلام، دون الآخرين.. أن نتذكر:

● كلمات البابا «شنودة الثالث» بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، التي قال فيها: «إن الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد.. نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا. ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجلوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟»^(٤٣).

ولقد رحب - البابا «شنودة» - أخيراً بالحلول الإسلامية التي يقدمها الفقه الإسلامي لمشكلات الأسرة المسيحية - ومنها قانون «الخلع» - وقال - رغم معارضات متعصبة ترفض «الخلع» لا شىء إلا لمصدره الإسلامى -: «إن الخلع مبدأ موجود منذ القدم في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به.. وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسباب تبينها للمحكمة، منها استحالة الحياة الزوجية بينهما.. وإذا كان قانون الخلع

يسمح للمرأة المسلمة بأن تستفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تستفيد منه المرأة المسيحية.

فالمعروف فى القانون هو عمومية القانون. فلا نطبقه فى حالة معينة لفائدة البعض ونرفضه فى حالة أخرى لفائدة البعض الآخر. إذن، الخلع يسمح للمرأة، مسيحية كانت أو مسلمة، أن تتخلص من الزوج «المُتعب»، وبخاصة لو كانت هناك أسباب تجعل استمرار الحياة المشتركة بينهما مستحيلًا..»^(٤٤).

فالوحدة الوطنية، من مقوماتها - بعد وحدة منظومة القيم، ووحدة المدرسة - وحدة المحكمة، ووحدة القانون، طالما لم يكن هناك نص دينى قطعى وجلىّ مخالف للشريعة العامة - الشريعة الإسلامية -.. ففيما يتعلق بمثل هذا النص يُترك غير المسلمين وما يدينون.. أما فى فقه المعاملات - ومنه أغلب قوانين الأحوال الشخصية.. وكل القوانين المدنية والجنائية والتجارية والدولية - فالفقه الإسلامى فيها قانون مدنى عام لكل الأمة، على اختلاف عقائدها الدينية..

● وأن نتذكر، كذلك، كلمات القائد الوطنى «مكرم عبيد باشا» [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ ١٨٨٩ - ١٩٦١م] التى يقول فيها: «نحن مسلمون ووطنا، ونصارى ديننا.. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصاراً.. واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين..»^(٤٥).

● ولقد فصلّ هذه الحقيقة أبو القانون المدنى الحديث، القاضى العادل، الدكتور «عبد الرزاق السنهورى باشا» [١٣١٣ - ١٣٩١هـ ١٨٩٥ - ١٩٧١م] عندما تحدث عن «جامع الإسلام.. وشريعته.. وفقه المعاملات فيه» باعتبارها مقومات الوحدة للأمة جمعاء، فقال: «إن الإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية لا تعنى مجتمعاً من المسلمين فقط، وإنما تعنى مجتمعاً ذا طابع فذ من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معاً جنباً إلى جنب تحت راية الإسلام، والتى قدمت لنا بذلك تراثاً مشتركاً لجميع سكان الشرق الإسلامى.. إن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية.. والشريعة الإسلامية لا ينبغى الاقتصار على كونها

صالحة لتطبيقها على المسلمين وحدهم فى العصر الحاضر، بل على غير المسلمين أيضاً، وذلك دون إرغام غير المسلمين على اتباع خلاف عقائدهم.. ولذلك، يجب أن تكون حركة إحياء الشريعة الإسلامية مبنية على أساس لا يتناقض مع هذه المعتقدات.. وأن يشترك فى هذه الحركة الإحيائية، إلى جانب المسلمين، غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيين منهم والاجتماعيين.. وأن نطبق قاعدة: أن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى ما لم تتناقض معها هذه الشرائع..»^(٤٦).

فالعلمانية ليست الحل.. بل إنها هى «المأزق» الذى يشكو منه عقلاء الأوروبيين والغربيين الذين شربوا كأسها المسموم.. وحرام أن يظل العلمانيون فى بلادنا مثل أهل الكهف.. يبشرون «بالحدائث الغربية» بعد أن تجاوزها أصحابها إلى عدمية وتفكيك «ما بعد الحدائث»!!.. ويدعون إلى العلمانية، بعد أن أفلست فى المجتمعات التى نشأت فيها، وشهد العالم ويشهد صحفوات دينية حتى عند أهل الديانات الوضعية، ورأينا ونرى «اللغة الدينية» و«المقاصد الدينية» تسود حتى فى ميادين السياسة بالبلاد التى ظننا أنها علمانية حتى النخاع!..

إذن، يجب أن نتوجه جميعاً إلى الشرق.. وأن نحذر ونتخلص من غوايات الغرب.. وأن نخلص الولاء والانتماء لمقومات حضارتنا الواحدة الجامعة، الحضارة الإسلامية، التى ورثت واستوعبت وأحييت كل الموارث الحضارية التى سبقت ظهور الإسلام، والتى شاركت فى بنائها كل شعوب الشرق، على اختلاف عقائدها الدينية.. فالتغريب، والغوايات الغربية، والاختراق الغربى لأمن أمتنا، الوطنى والقومى والحضارى، هى المخاطر المحدقة بوحدة الوطنية والقومية والحضارية..

● ولنتذكر كلمات شهيد الحرية عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] - قبل قرن من الزمان -: «يا قوم، أليس مطلق العربى أخف استحقاقاً لأخيه من الغربى؟!.. هذا الغربى قد أصبح مادياً لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الدينى إلا مخادعة وكذباً. فالذين يطاردون الدين - [بالعلمانية] - فى بلادهم، لا تكون دعواهم الدين فى الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الشباك!..»^(٤٧).

● فنحن جميعاً شريكون، حضارة ومدنية وقيماً.. وبعبارة «السنهورى باشا»: «.. فالشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإنهما لشيء واحد.. وأمتنا ذات مدنية أصيلة، هي أكثر تهذيباً من المدنية الأوروبية.. وليست هي الأمة الطفيلية التي ترفع لمدينتها ثوباً من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون»^(٤٨)!

وإذا كان أسلافنا قد علمونا: «أن صلاح آخر هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها».. فإن المنهاج الإسلامى الذى جعل «الآخر» جزءاً من «الذات» - ذات الأمة.. والرعية.. والدولة.. والقومية.. والحضارة - بل والدين الإلهى الواحد، مع الاختلاف فى الشرائع، هو أصلح المناهج لبناء الوحدة الوطنية والقومية والحضارية لشعوب الأمة الإسلامية، هذه الوحدة التى نواجه بها مختلف الغوايات وجميع التحديات..

وعلىنا أن نتذكر - كمنطلق لنا فى هذا المقام - كلمات رسول الإسلام، ورحمة الله للعالمين، وخاتم النبيين والمرسلين، والمصدق لما جاءوا به أجمعين، ومحرر الشرق والشرقيين، وبانى نهضة هذه الأمة، عندما أعطى العهد والميثاق لغير المسلمين، أن يكونوا «مع المسلمين أمة واحدة، بينهم النصر والنصح والنصيحة والأسوة والبر دون الإثم.. لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا شركاء فيما لهم وفيما عليهم.. وأن أحرس دينهم وملتهم بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى..».

ذلك هو دستور العدل والإنصاف لوحدة الأمة، مع كل الحقوق والحريات فى التنوع الدينى، فى ظل الولاء والانتماء لحضارتنا المشتركة والوحدة.. حضارة الإسلام.

وإذا جاز لنا، فى ختام هذه الدراسة أن نرشح «لجماعة الحكماء» التى يجب أن تأتلف، لتدير الحوار الموضوعى حول مشكلات الأقليات، والتحديات التى تواجه الأمة بسبب استغلال الغرب الاستعماري لهذه المشكلات.. إذا جاز لنا أن نرشح «النقاط الساخنة»، التى يجب أن تتصدر «جدول أعمال» هذا الحوار، فإننا نرشح: أولاً: ضرورة استبعاد الأوهام التى تروجها قطاعات أقباط المهجر، تلك التى

سقطت فى شباك الغواية الصهيونية - الغربية ، والتى تزعم أن العروبة والإسلام طارئان على الشرق ، ويجب «تحرير» النصرانية الشرقية منهما!! . فليست هناك - ولا يعقل أن تكون - «امتيازات للأقدمية الدينية» . فدين الله واحد ، والتعددية والتوالى إنما هما فى الشرائع والنبوات والرسالات ، التى هى معالم على طريق الوصول إلى الله . فالمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا ، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران . وكذلك المسلمون المصريون ، هم مصريون - أى أقباط - أسلموا ، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر . وعلى الذين يزعمون أن المسلمين فى المشرق والمغرب هم مهاجرون طارئون على البلاد التى فتحها المسلمون ، أن يتعلموا ويعلموا حقائق «الديموجرافيا» ، التى كتبها ونشرها العلماء غير المسلمين ، والتى تقول :

● إن كل سكان شبه الجزيرة العربية فى عهد الخلافة الراشدة - أى عصر الفتوحات - كان عددهم ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة فقط . . بينما كان عدد سكان مصر والشام والعراق وفارس وحدها - أى باستثناء المغرب - ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة^(٩) . . فحتى لو هاجر كل سكان شبه الجزيرة العربية - وهذا لم يحدث - إلى البلاد التى فتحها المسلمون لما كان لذلك أى أثر «ديموجرافى» على التركيبة السكانية الأصلية لتلك البلاد .

وإذا كانت قد تمت هجرات عربية مسلمة محدودة العدد إلى تلك البلاد ، فلقد تمت إليها هجرات أرمنية ويونانية وقبرصية مسيحية أيضاً .

وعلى الذين يقولون إن الإسلام «وافد» على النصرانية فى تلك البلاد ، أن يتذكروا أن النصرانية «وافدة» على تلك البلاد أيضاً . بل هى وافدة حتى على الفاتيكان! . كما أن اليهودية «وافدة» على كل البلاد التى دخلتها ، بما فى ذلك فلسطين! . وإذا كانت «الأقدمية الدينية» ميزة وامتيازاً ، فلربما كان الفوز بهذا الامتياز هو للذين يعبدون «العجل أبيض»!! .

فعلينا أن نبدأ حوار الحكماء بتبديد هذه الأوهام .

وثانياً: أن المساواة فى حقوق المواطنة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هى حق إلهى ، بحكم خلق الله ، سبحانه وتعالى ، للإنسان - من الأقليات أو من

الأغليات كان هذا الإنسان - فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، تُمنح أو تُمنع تبعاً لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة، وإنما هى «حق إلهى»، بحكم الخلق والتكريم الإلهى لمطلق الإنسان..

وإذا كان الحق فى بناء دور العبادة، وفى إقامة الشرائع الدينية فيها، هو مما كفله الإسلام، بل وأوصى الدولة الإسلامية بأن تعين وتساعد عليه غير المسلمين.. قرر الإسلام ذلك، وطبقه قبل أى حديث عن حقوق الإنسان.. ولما كانت هذه القضية قد اكتسبت الكثير من الحساسية، لكثرة ما قيل فيها وعنها، ولما اختلط فى أوراقها من حق ومن أكاذيب.. فإن الاقتراح الذى تقدمه - للحوار حوله - بصدها، هو الذى سبق واقترحه شيخنا محمد الغزالى، عليه رحمة الله، فى الندوة التى دعت إليها نقابة المهندسين - بمصر منذ سنوات، والتى حضرها معنا البابا «شنودة الثالث».. وفيها اقترح الشيخ الغزالى أن يعطى كل أهل دين مساحة من الأرض، لبناء دور عبادتهم عليها، مساوية لنسبتهم العددية إلى السكان.. فهذا هو المعيار العادل، الذى يخرج هذه القضية الحساسة والحيوية من غلو الغلاة، كل الغلاة.. غلو الذين يضيقون ببناء الكنائس.. وغلو الذين يريدون لبناء الكنائس أن يكون مظهرًا من مظاهر «الاستقواء» والتغيير لهوية المجتمع، لحساب الهوية المستوردة، التى لا علاقة لها بهويتنا المشتركة..

وثالثًا: إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها فى «الدولة»، كأن يسعى المسلمون، فى فرنسا مثلاً، بملايينهم الخمسة، إلى فرض «الدولة الإسلامية وشريعته» على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسى، أو أن يمثلوا «فيتو» على التوجه العلمانى للأغلبية - وكذلك الحال مع مائتى مليون مسلم فى الهند -، لأن «هوية الدولة» - بالمنطق الديمقراطى - هى خيار الأغلبية.. فإن هذه «الدولة» - التى تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية - مطالبة بأن لا تجور هويتها - علمانية كانت أو إسلامية - على الحق الإلهى والمقدس للأقليات فى حرية الاعتقاد الدينى، وإقامة شعائر وفرائض الدين..

فالأقليات الإسلامية، فى البلاد العلمانية، مطالبة باحترام القانون الوضعى،

بشرط أن يراعى هذا القانون حريتها فى الاعتقاد الإسلامى وإقامة الفرائض الإسلامية، ومراعاة الحلال والحرام الدينى فى أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية، وعدم التجريح لمقدساتها .

والأقليات غير المسلمة، فى المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، مطالبة باحترام قوانين وفقه الشريعة الإسلامية، خصوصاً وأن هذه القوانين مرجعيتها منظومة القيم الإيمانية المشتركة، والجانب المدنى والقانونى الإسلامى، الذى لا بديل له ولا نقيض فى النصرانية، وإنما هو بديل ونقيض للقانون الغربى العلمانى، الذى جاءنا فى ركاب الغزاة والمستعمرين . فالقانون الإسلامى هو قانون «وطنى» . وقومى» بالنسبة لغير المسلمين . . مع ضرورة مراعاة ألا يتعارض بند من بنود هذا القانون مع نص دينى جلى جاء به الدين لغير المسلمين . .

بهذه القضايا الأكثر حساسية، والأكثر عرضة للاستغلال، يجب أن يبدأ الحوار بين الحكماء . . وإذا كانت أوراق الأقليات قد تحولت - على يد الهيمنة الغربية - من «نعمة التنوع فى إطار الوحدة» إلى «نقمة تشرذم وتفتت»، فإن العقلاء والحكماء، من مختلف الفرقاء، يجب عليهم إنقاذ الأديان من هذا الاستغلال الاستعمارى . . وإنقاذ الأقليات من هذا الذى تصنعه الغواية والخيانة بأقلية قليلة، أرادت وتريد تعميم جريمتها على الأغلبية الساحقة من أبناء الأقليات . .

إن التعصب رذيلة، بصرف النظر عن دين المتعصبين . . أما السقوط فى شباك الغواية الاستعمارية فهو خيانة للوطن . . وللدين معاً . . ولنتذكر - مرة أخرى - الخيار الصهيونى للأقليات - كما جاء فى مقررات «ندوة التسعينيات» - والذى قالوا فيه: «إن هذه الأقليات هى شريكة لإسرائيل فى المصير، وفى الوقوف ضد الإسلام والقومية - العربية»!! .

أعاذ الله أمتنا من شرور الغواية . . وحرسها من تحديات الخيانة . . ووفقنا جميعاً - أقليات وأغلبية - إلى ما يرسخ وحدة أمتنا، ويعيد لها أسباب النهوض، لتأخذ مكانها ومكانتها الجديرة بدورها التاريخى، الذى تعلمت منه الكثير من الأمم والحضارات . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

• الهوامش

- (١) انظر كتبنا: [الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و[الأقليات الدينية والقومية: تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨م. و[فى المسألة القبطية حقائق وأوهام] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- (٢) جوردن مارشال [موسوعة علم الاجتماع] المجلد الأول - مادة «إثنية» (سلالة). ترجمة: أحمد عبد الله زايد، محمد محيى الدين، محمود عبد الرشيد، عدلى السمرى، محمد عبد الحميد، محمد على إبراهيم، هناء الجوهري. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٣) د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ - ٥٣٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- (٤) يوحنا النقيوسى [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ١٢٢، ١٢٥ - ١٣٠. ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبد الجليل. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م و: د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٤٠، ٤١، ٤٩، ١٢٦، ١٦٧، ١٦٨. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٥) د. محمد حميد الله الحيدر آبادى - جمع وتحقيق - [مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ طبعة القاهرة ١٩٥٦م.
- (٦) المصدر السابق ص ٢٠.
- (٧) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٣ ص ٣١٢. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.
- (٨) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١٢، ١٢٣ - ١٢٧.
- (٩) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧. تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- (١٠) هم أتباع «مانى» - ولقد اعتبروه خاتم الأنبياء - ويسمون «الثنوية» أيضًا.
- (١١) سير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ١٠٣، ١٠٥. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- (١٢) فيليب فارغ، يوسف كرباح [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٤٦، ٤٧، ٢٥. ترجمة: بشير السباعى طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.
- ولقد كان انتشار الإسلام خارج مصر أبطأ.. ولو أخذنا مصر وسوريا وفارس معا، فسنجد أن انتشار الإسلام فيها بعد قرن من الفتح لم يتجاوز ١٠٪ من السكان.
- (١٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.
- (١٤) المرجع السابق. ص ٨٩، ٩٠، ٤٥٥، ٩٨، ٩٩.
- (١٥) آدم متر [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ج ١ ص ١٠٥. ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريده. طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.

- (١٦) أبو القاسم بن منجب - الشهير بابن الصيرفى - [الإشارة إلى من نال الوزارة] تحقيق: عبد الله مخلص. طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤م.
- (١٧) [الدعوة إلى الإسلام] ص٧٢٩، ٧٣٠.
- (١٨) جورج قزم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص٢١١ - ٢٢٤ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م والنص فى [الملل والنحل والأعراق] ص٧٢٩، ٧٣٠.
- (١٩) المقرئى [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] ج١ ق٢ ص٤٢٥، ٤٣٢. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- (٢٠) الجبرتى [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج٥ ص١٣٦ تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م.
- (٢١) رفيق البستانى، فيليب فارغ [أطلس معلومات العالم العربى] ص٢٨ - ٣٣، ١٢٢ - ١٤١ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م. و: فيليب فارغ، يوسف كرناج [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص١١٥، ١١٨، ١١٩، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٨٤.
- (٢٢) [موسوعة العالم الإسلامى] ج٣ ص٥٨١ - ٨٧٨ - إعداد منظمة المؤتمر الإسلامى - طبعة الكويت. وموسوعة أديان العالم الموضوعة على شبكة المعلومات العالمية سنة ٢٠٠٢م - موقع: اسأل وشكرًا.
- (٢٣) [أطلس معلومات العالم العربى] ص٢٨ - ٣٣. و[المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص١١٥، ١١٩، ١٦٤، ٢١٦.
- (٢٤) محمد حسنين هيكل [المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية] - الكتاب الأول - ص٣١، ٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.
- (٢٥) جريس هالسل [النبوءة والسياسة] ترجمة: محمد السماك. طبعة ليبيا سنة ١٩٩٠م. و[يد الله] ترجمة: محمد السماك. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٢٦) د. محمد عمارة [إسرائيل: هل هى سامية؟] ص١٢٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م.
- (٢٧) د. محمد عمارة [هل الإسلام هو الحل... لماذا وكيف؟] ص٢٢ - من مراسلات القناصل - محفوظات أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - لسنوات ١٨٤٠، ١٨٤٢، ١٨٤٨، ١٨٩٧، ١٨٩٨ - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.
- (٢٨) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص١٣١، ١٣٣، ١٤٣. طبعة بيروت سنة ١٩٩٠م.
- (٢٩) المرجع السابق. ص١٤٢، ١٤٣.
- (٣٠) المرجع السابق. ص١٣٢، ١٤٣.
- (٣١) المرجع السابق. ص١٤٠ - ١٤٤.

- (٣٢) [ندوة الموقف الإسرائيلي من الجماعات الإثنية والطائفية فى العالم العربى] ص ٦ - ١٠ ، ٢٧
ترجمة: الدار العربية للدراسات والنشر طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- (٣٣) سمير مرقص [الحماية والعقاب: الغرب والمسألة الدينية فى الشرق الأوسط] ص ٨١ - ١٥٦
طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٣٤) د. سعد الدين إبراهيم [التعددية الإثنية فى الوطن العربى] ص ٢٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥م.
- (٣٥) [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ - ٥٣٤.
- (٣٦) مجموعة تقارير: «روزاليوسف» و«اتحاد المهن الطبية» و«اتحاد المقاولين» و«مجلة المختار الإسلامى» عدد ١٥ ربيع الأول - يوليو سنة ١٩٩٨م - وجمال بدوى [الفتنة الطائفية] ص ١١٦. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م - وهو ينقل عن: د. سميرة بحر [الأقباط فى الحياة السياسية المصرية].
- (٣٧) [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج ٥ ص ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤.
- (٣٨) انظر - على سبيل المثال - كتبنا [الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و[نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م. و[هل الإسلام هو الحل؟] و[الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية] طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٢م.
- (٣٩) فى استفتاء أجراه «المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنايئة» فى مصر، كانت أغلبية الأقباط مع تطبيق الشريعة الإسلامية على كل الأمة، أقباطاً ومسلمين - انظر [الأهرام] فى ٦ - ٣ - ١٩٨٥م.
- (٤٠) [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢١٦.
- (٤١) [الملل والنحل والأعراق] ص ٥٢٩ - ٥٣٤.
- (٤٢) جوتفرايد كونزلن [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦. تقديم: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.
- (٤٣) [الأهرام] فى ٦ - ٣ - ١٩٨٥م.
- (٤٤) [الأهرام] فى ٢٦ - ٣ - ٢٠٠٢م.
- (٤٥) د. محمد عمارة [الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين] ص ١٥٠.
- (٤٦) د. عبد الرزاق السنهورى [الأوراق الشخصية] فى تاريخ: ١١ - ١١ - ١٩٢٢م و ١٧ - ١٠ - ١٩٢٣م - ١٨ - ١٠ - ١٩٢٣م و ٢٤ - ٢ - ١٩٢٤م. إعداد: د. نادية السنهورى، د. توفيق الشاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.
- (٤٧) عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] ص ٢٠٨. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

(٤٨) جريدة [السياسة] فى ١٤ - ١٠ - ١٩٣٢ م. و[الأوراق الشخصية] فى تاريخ ١١ - ١١ - ١٩٢٢ م. و ٢٨ - ٨ - سنة ١٩٢٣ م.

(٤٩) [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥ ، ٤٤ - وانظر - فى دعاوى أن العروبة والإسلام استعمار استيطانى لمصر، والدعوة إلى تحرير مصر منهما: د. سليم نجيب - وهو رئيس الهيئة القبطية بكندا - [الأقباط عبر التاريخ] ص ١٨٤ ، ١٨٥ وفيه يتحدث عن برنامج «جماعة الأمة القبطية» - وكيف أن هدف هذه الجماعة هو «استرداد مصر كلها، أرضنا التى سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ أربعة عشر قرنا. إن أرضنا هى مصر، ونحن سلالة الفراعنة، وديانتنا هى المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا هى اللغة القبطية» - طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.

المؤلف: د. محمد عمارة

١. سيرة ذاتية.. فى نقاط:

* مفكر إسلامى . . ومؤلف . . ومحقق . . وعضو «مجمع البحوث الإسلامية» - بالأزهر الشريف .

* ولد بريف مصر - ببلدة «صروة»، مركز «قلين»، محافظة «كفر الشيخ» - فى ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠هـ - ٨ ديسمبر ١٩٣١م - فى أسرة ميسورة الحال - مادياً - تحترف الزراعة . . وملتزمة دينياً .

* قبل مولده، كان والده قد نذر لله : إذا جاء المولود ذكراً، أن يسميه محمداً، وأن يهبه للعلم الدينى - أى أن يطلب العلم فى الأزهر الشريف . .

* حفظ القرآن وجَوَّده بـ «كُتَّاب» القرية . . مع تلقى العلوم المدنية الأولية بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإلزامى -

* فى سنة ١٣٦٤هـ ١٩٤٥م التحق «بمعهد دسوق الدينى الابتدائى» - التابع للجامع الأزهر الشريف . . ومنه حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م .

* وفى المرحلة الابتدائية - النصف الثانى من أربعينيات القرن العشرين - بدأت تفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية والإسلامية، والأدبية والثقافية . . فشارك فى العمل الوطنى - قضية استقلال مصر . . والقضية الفلسطينية - بالخطابة فى المساجد . . والكتابة - نثراً وشعراً - وكان أول مقال نشرته له صحيفة [مصر الفتاة] - بعنوان «جهاد» - عن فلسطين - فى إبريل سنة ١٩٤٨م . . وتطوع

للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية. . لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين .

* في سنة ١٩٤٩م، التحق «بمعهد طنطا الأحمدى الدينى الثانوى» - التابع للجامع الأزهر الشريف . . ومنه حصل على الثانوية الأزهرية سنة ١٣٧٣هـ سنة ١٩٥٤م .

* وواصل - فى مرحلة الدراسة الثانوية - اهتماماته السياسية والأدبية والثقافية . . ونشر شعراً ونثراً فى صحف ومجلات [مصر الفتاة] و[منبر الشرق] و[المصرى] و[الكاتب] . . وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦م فى سنة ١٩٥١م .

* فى سنة ١٣٧٤هـ سنة ١٩٥٤م التحق «بكلية دار العلوم» - جامعة القاهرة . . ومنها تخرج، ونال درجة «الليسانس» فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية - ولقد تأخر تخرجه - بسبب نشاطه السياسى - إلى سنة ١٩٦٥م بدلاً من سنة ١٩٥٨م . .

* وتواصل - فى مرحلة الدراسة الجامعية - نشاطه الوطنى والأدبى والثقافى . . فشارك فى «المقاومة الشعبية»، بمنطقة قناة السويس، إبان مقاومة الغزو الثلاثى لمصر سنة ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م . .

* ونشر المقالات فى صحيفة [المساء] - المصرية - ومجلة [الأداب] - البيروتية . . وألف ونشر أول كتبه عن [القومية العربية] سنة ١٩٥٨م .

* بعد التخرج من الجامعة، أعطى كل وقته - تقريباً - وجميع جهده لمشروعه الفكرى، فجمع وحقق ودرس الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة: رفاعه رافع الطهطاوى . . وجمال الدين الأفغانى . . ومحمد عبده . . وعبد الرحمن الكواكبى . . وعلى مبارك . . وقاسم أمين . . وكتب الكتب والدراسات عن أعلام التجديد الإسلامى . . من مثل: الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا . . والشيخ محمد الغزالى . . وعمر مكرم . . ومصطفى كامل . . وخير الدين التونسي . . ورشيد رضا . . وعبد الحميد بن باديس . . ومحمد

الخضر حسين .. وأبى الأعلى المودودي .. وحسن البنا .. وسيد قطب ..
والشيخ محمود شلتوت .. إلخ ..

❖ ومن أعلام الصحابة الذين كتب عنهم: عمر بن الخطاب .. وعلى بن أبى طالب .. وأبو ذر الغفارى .. وأسماء بنت أبى بكر .. كما كتب عن تيارات الفكر الإسلامى - القديمة والحديثة - وعن أعلام التراث الإسلامى، من مثل: غيلان الدمشقى .. والحسن البصرى .. وعمرو بن عبيد .. والنفس الزكية، محمد بن الحسن .. وعلى بن محمد .. والماوردي .. وابن رشد (الحفيد) .. والعز بن عبد السلام .. إلخ ..

❖ وتناولت كتبه - التى تجاوزت المائة والخمسين - السمات المميزة للحضارة الإسلامية .. والمشروع الحضارى الإسلامى .. والمواجهة مع الحضارات الغازية والمعادية .. وتيارات العلمنة والتغريب .. وصفحات العدل الاجتماعى الإسلامى .. والعقلانية الإسلامية.

وحاور وناظر العديد من أصحاب المشاريع الفكرية الوافدة ..

وحقق عددًا من نصوص التراث الإسلامى - القديم منه والحديث - ..

❖ وكجزء من عمله العلمى ومشروعه الفكرى، حصل - من كلية دار العلوم - فى العلوم الإسلامية - تخصيص الفلسفة الإسلامية - على الماجستير سنة ١٣٩٠هـ سنة ١٩٧٠م، بأطروحة عن [المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية] .. وعلى الدكتوراه سنة ١٣٩٥هـ سنة ١٩٧٥م، بأطروحة عن [الإسلام وفلسفة الحكم] ..

❖ أسهم فى تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة .. وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية فى وطن العروبة وعالم الإسلام وخارجهما .. كما أسهم فى تحرير العديد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة، مثل: [موسوعة السياسة] و[موسوعة الحضارة العربية] و[موسوعة الشروق] و[موسوعة المفاهيم الإسلامية] و[الموسوعة الإسلامية العامة] .. إلخ ..

❖ نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية، منها: «المجلس الأعلى - للشئون الإسلامية» - بمصر -، و«المعهد العالمى للفكر الإسلامى» -

بواشنطن -، و«مركز الدراسات الحضارية» - بمصر -، و«المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» - مؤسسة آل البيت - بالأردن -.. و«مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف .

* حصل على عدد من الجوائز والأوسمة . والشهادات التقديرية . . والدروع . . منها: «جائزة جمعية أصدقاء الكتاب» - بلبنان - سنة ١٩٧٢م . . وجائزة الدولة التشجيعية - بمصر - سنة ١٩٧٦م . . ووسام العلوم والفنون . . من الطبقة الأولى - بمصر - سنة ١٩٧٦ . . وجائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام - سنة ١٩٩٣م . . وجائزة المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية - سنة ١٩٩٧م . . ووسام التيار القومي الإسلامى - الفائذ المؤسس - سنة ١٩٩٨م . .

* جاوزت أعماله الفكرية - تأليفاً وتحقيقاً - مائة وخمسين كتاباً، وذلك غير ما نشر له فى الصحف والمجلات . .

* ترجمت العديد من كتبه إلى العديد من اللغات الشرقية والغربية . . من مثل: التركية . والملاوية، والفارسية، والأوردية، والإنجليزية، والفرنسية، والروسية، والإسبانية، والألمانية، والألبانية . .

* الاسم - رباعياً -: محمد عمارة مصطفى عمارة . .

* العنوان: جمهورية مصر العربية - القاهرة - حدائق الزيتون - ٢٦ شارع الزيتون - هاتف ٢٥٩٢٩٣٧ فاكس ٢٥٧٠٠٣٨ .

٢- ثبت بأعماله الفكرية:

أ- تأليف:

- ١ - معالم المنهج الإسلامى - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ٢ - الإسلام والمستقبل - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ٣ - نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ٤ - معارك العرب ضد الغزاة - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨ م.
- ٥ - الغارة الجديدة على الإسلام - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨ م.
- ٦ - جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ٧ - الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكرى والمعارك الفكرية - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٨ م.
- ٨ - الوعى بالتاريخ وصناعة التاريخ - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ٩ - التراث والمستقبل - دار الرشاد القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ١٠ - الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ١١ - الإبداع الفكرى والخصوصية الحضارية - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ١٢ - الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا: إسلامية الدولة والمدنية والقانون - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٩ م.
- ١٣ - الإسلام والسياسة: الرد على شبهات العلمانيين - دار الرشاد - القاهرة سنة ١٩٩٧ م.
- ١٤ - الإسلام وفلسفة الحكم - دار الشروق - سنة ١٩٩٨ م.
- ١٥ - معركة الإسلام وأصول الحكم - دار الشروق - سنة ١٩٩٧ م.
- ١٦ - الإسلام والفنون الجميلة - دار الشروق - سنة ١٩٩١ م.
- ١٧ - الإسلام وحقوق الإنسان - دار الشروق - سنة ١٩٨٩ م.
- ١٨ - الإسلام والثورة - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.

- ١٩ - الإسلام والعروبة - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٢٠ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٢١ - هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟ - دار الشروق - سنة ١٩٩٨ م.
- ٢٢ - سقوط الغلو العلماني - دار الشروق - سنة ١٩٩٥ م.
- ٢٣ - الغزو الفكري وهم أم حقيقة؟ - دار الشروق - سنة ١٩٩٧ م.
- ٢٤ - الطريق إلى اليقظة الإسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٠ م.
- ٢٥ - تيارات الفكر الإسلامي - دار الشروق - سنة ١٩٩٧ م.
- ٢٦ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري - دار الشروق - سنة ١٩٩٧ م.
- ٢٧ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٢٨ - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٧ م.
- ٢٩ - العرب والتحدى - دار الشروق - سنة ١٩٩١ م.
- ٣٠ - مسلمون ثوار - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٣١ - التفسير الماركسي للإسلام - دار الشروق - سنة ١٩٩٦ م.
- ٣٢ - الإسلام بين التنوير والتزوير - دار الشروق - سنة ١٩٩٦ م.
- ٣٣ - التيار القومي الإسلامي - دار الشروق - سنة ١٩٩٦ م.
- ٣٤ - الإسلام والأمن الاجتماعي - دار الشروق - سنة ١٩٩٨ م.
- ٣٥ - الأصولية بين الغرب والإسلام - دار الشروق - سنة ١٩٩٨ م.
- ٣٦ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية - دار الشروق - سنة ١٩٩٤ م.
- ٣٧ - قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية - دار الشروق - سنة ١٩٩٣ م.

- ٣٨ - عمر بن عبد العزيز - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٣٩ - جمال الدين الأفغاني: موقف الشرق - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤٠ - محمد عبده: تجديد الدنيا بتجديد الدين - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤١ - عبد الرحمن الكواكبي - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤٢ - أبو الأعلى المودودي - دار الشروق - سنة ١٩٨٧ م.
- ٤٣ - رفاة الطهطاوي - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.

- ٤٤ - على مبارك - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤٥ - قاسم أمين - دار الشروق - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤٦ - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - القاهرة - سنة ١٩٩٧ م.
- ٤٧ - القدس الشريف رمز الصراع وبوابة الانتصار - نهضة مصر - القاهرة - سنة ١٩٩٧ م.
- ٤٨ - هذا إسلامنا: خلاصات الأفكار - دار الوفاء سنة ٢٠٠٠ م.
- ٤٩ - الصحوة الإسلامية فى عيون غربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٠ - الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥١ - أبو حيان التوحيدي - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٢ - ابن رشد بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٣ - الانتماء الثقافى - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٤ - التعددية: الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٥ - صراع القيم بين الغرب والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٦ - الدكتور يوسف القرضاوى: المدرسة الفكرية والمشروع الفكرى - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٧ - عندما دخلت مصر فى دين الله - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٥٨ - الحركات الإسلامية: رؤية نقدية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٥٩ - المنهج العقلى فى دراسات العربية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٦٠ - النموذج الثقافى - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦١ - تجديد الدنيا بتجديد الدين - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦٢ - الثوابت والمتغيرات فى فكر اليقظة الإسلامية الحديثة - نهضة مصر - سنة ١٩٩٧ م.
- ٦٣ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦٤ - التقدم والإصلاح: بالتنوير الغربى؟ أم بالتجديد الإسلامى؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.

- ٦٥ - الحملة الفرنسية فى الميزان - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦٦ - الحضارات العالمية: تدافع؟ أم صراع؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦٧ - إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٦٨ - القدس بين اليهودية والإسلام - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٦٩ - الأقليات الدينية والقومية: تنوع ووحدة؟ أم تفتيت واختراق؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٨ م.
- ٧٠ - السنة النبوية والمعرفة الإنسانية - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠ م.
- ٧١ - خطر العولمة على الهوية الثقافية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٧٢ - مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠ م.
- ٧٣ - بين الغزالي وابن رشد - تحت الطبع.
- ٧٤ - هل المسلمون أمة واحدة؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٧٥ - الغناء والموسيقى: حلال أم حرام؟ - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٧٦ - تحليل الواقع بمنهاج العاهات المزمدة - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٧٧ - الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين - نهضة مصر - سنة ٢٠٠٠ م.
- ٧٨ - من القومية أولاً إلى الإسلام أولاً - تحت الطبع.
- ٧٩ - التحرير الإسلامى للمرأة - دار الشروق سنة ٢٠٠٢ م.
- ٨٠ - الظاهرة الإسلامية - المختار الإسلامى ١٩٩٨ م.
- ٨١ - الوسيط فى المذاهب والمصطلحات الإسلامية - نهضة مصر - سنة ١٩٩٩ م.
- ٨٢ - إسلاميات السنهورى باشا - تحت الطبع.
- ٨٣ - منار الإحياء والتجديد - تحت الطبع.
- ٨٤ - النص الإسلامى بين الاجتهاد والجمود والتاريخية - دار الفكر - دمشق - سنة ١٩٩٨ م.
- ٨٥ - أزمة الفكر الإسلامى الحديث - دار الفكر - دمشق - سنة ١٩٩٨ م.
- ٨٦ - المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد - دار المعارف - سنة ١٩٨٣ م.
- ٨٧ - العطاء الحضارى للإسلام - دار المعارف - سنة ١٩٩٨ م.
- ٨٨ - إسلامية المعرفة ماذا تعنى؟ - دار المعارف - سنة ١٩٩٩ م.

- ٨٩ - ثورة الزنج - دار الوحدة - سنة ١٩٨٠ م.
- ٩٠ - دراسات فى الوعي بالتاريخ - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤ م.
- ٩١ - الإسلام والوحدة القومية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٧٩ م.
- ٩٢ - الإسلام والسلطة الدينية - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - سنة ١٩٨٠ م.
- ٩٣ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية - دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨٢ م.
- ٩٤ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين - دار الوفاء - القاهرة - سنة ١٩٩٥ م.
- ٩٥ - سلامة موسى: اجتهد خاطئ أم عمالة حضارية؟ - دار الوفاء - سنة ١٩٩٥ م.
- ٩٦ - العالم الإسلامى والمتغيرات الدولية - دار الوفاء - سنة ١٩٩٧ م.
- ٩٧ - عالمنا: حضارة أم حضارات؟ - دار الوفاء - سنة ١٩٩٧ م.
- ٩٨ - الجديد فى المخطط الغربى تجاه المسلمين - دار الوفاء - سنة ١٩٩٧ م.
- ٩٩ - العلمانية بين الغرب والإسلام - دار الوفاء - سنة ١٩٩٦ م.
- ١٠٠ - محمد عبده: سيرته وأعماله - دار القدس - بيروت - سنة ١٩٧٨ م.
- ١٠١ - نظرية جديدة إلى التراث - دار قتيبة - دمشق - سنة ١٩٨٨ م.
- ١٠٢ - القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب - دار الفكر - القاهرة - سنة ١٩٥٨ م.
- ١٠٣ - الفكر القائل للثورة الإيرانية - دار ثابت - القاهرة - سنة ١٩٨٢ م.
- ١٠٤ - الإسلام وضرورة التغيير - دار المعارف سنة ٢٠٠١ م.
- ١٠٥ - ظاهرة القومية فى الحضارة العربية - الكويت - سنة ١٩٨٣ م.
- ١٠٦ - رحلة فى عالم الدكتور محمد عمارة - حوار - دار الكتاب الحديث - بيروت - سنة ١٩٨٩ م.
- ١٠٧ - نظرية الخلافة الإسلامية - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - سنة ١٩٨٠ م.
- ١٠٨ - العدل الاجتماعى لعمر بن الخطاب - دار الثقافة الجديدة - سنة ١٩٧٨ م.

- ١٠٩ - الفكر الاجتماعي لعلى بن أبى طالب - دار الثقافة الجديدة - سنة ١٩٧٨ م .
- ١١٠ - إسرائيل هل هى سامية؟ - دار الكاتب العربى - القاهرة - سنة ١٩٦٨ م .
- ١١١ - الإسلام وأصول الحكم: دراسات ووثائق - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - سنة ١٩٨٥ م .
- ١١٢ - الدين والدولة - الهيئة العامة للكتاب - سنة ١٩٩٧ م .
- ١١٣ - الاستقلال الحضارى - الهيئة العامة للكتاب - سنة ١٩٩٣ م .
- ١١٤ - الإسلام وقضايا العصر - دار الوحدة - بيروت - سنة ١٩٨٤ م .
- ١١٥ - الإسلام والحرب الدينية - دار المعارف - سنة ٢٠٠٢ م .
- ١١٦ - الإسلام والعروبة والعلمانية - دار الوحدة - سنة ١٩٨١ م .
- ١١٧ - الفريضة الغائبة: عرض وحوار وتقييم - دار الوحدة - سنة ١٩٨٣ م .
- ١١٨ - التراث فى ضوء العقل - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤ م .
- ١١٩ - فجر اليقظة القومية - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤ م .
- ١٢٠ - العروبة فى العصر الحديث - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤ م .
- ١٢١ - الأمة العربية وقضية الوحدة - دار الوحدة - سنة ١٩٨٤ م .
- ١٢٢ - أكذوبة الاضطهاد الدينى فى مصر - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة - سنة ٢٠٠٠ م .
- ١٢٣ - فى المسألة القبطية: حقائق وأوهام - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠١ م .
- ١٢٤ - الإسلام والآخر: من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟ - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠١ م .
- ١٢٥ - فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .
- ١٢٦ - الإسلام والأقليات: الماضى والحاضر والمستقبل - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .
- ١٢٧ - مستقبلنا بين التجديد الإسلامى والحداثة الغربية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .

١٢٨ - فى فقه الحضارة الإسلامية - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م.

١٢٩ - الدين والدولة والمدنية عند السنهورى باشا - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٣ م.

١٣٠ - شبهات وإجابات حول القرآن الكريم - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة ٢٠٠١ م.

١٣١ - الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة ٢٠٠١ م.

١٣٢ - الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية - دار الشروق سنة ٢٠٠٢ م.

١٣٣ - شبهات وإجابات حول مكانة المرأة فى الإسلام - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج١، ٢، ٣ - سنة ٢٠٠١ م.

ب - دراسة وتحقيق:

١٣٤ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٣ م.

١٣٥ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٩ م.

١٣٦ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م.

١٣٧ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٥ م.

١٣٨ - الأعمال الكاملة لقاسم أمين - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م.

١٣٩ - رسائل العدل والتوحيد - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٧ م.

١٤٠ - كتاب الأموال - لأبى عبيد القاسم بن سلام - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٨٩ م.

١٤١ - رسالة التوحيد - للإمام محمد عبده - دار الشروق - القاهرة - سنة ١٩٩٣ م.

- ١٤٢ - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده - دار الرشاد - القاهرة - سنة ١٩٩٧ م.
- ١٤٣ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال - لابن رشد - دار المعارف سنة ١٩٩٩ م.
- ١٤٤ - التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ - لمحمد مختار باشا المصرى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - سنة ٢٠٠٣ م.
- ١٤٥ - الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان - للشيخ محمد الخضر حسين - نهضة مصر سنة ١٩٩٩ م.
- ١٤٦ - السنة والبدعة - للشيخ محمد الخضر حسين - نهضة مصر سنة ١٩٩٩ م.

ج- مناظرات:

- ١٤٧ - أزمة العقل العربى - دار الآفاق الدولية - القاهرة سنة ١٩٩٣ م.
- ١٤٨ - المواجهة بين الإسلام والعلمانية - دار الآفاق الدولية - القاهرة سنة ١٤١٣ هـ.
- ١٤٩ - تهافت العلمانية - دار الآفاق الدولية - القاهرة سنة ١٤١٣ هـ.

د- بالاشتراك مع آخرين:

- ١٥٠ - الحركة الإسلامية: رؤية مستقبلية - الكويت سنة ١٩٨٩ م.
- ١٥١ - القرآن - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- ١٥٢ - محمد ﷺ - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٢ م.
- ١٥٣ - عمر بن الخطاب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- ١٥٤ - على بن أبى طالب - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت سنة ١٩٧٤ م.
- ١٥٥ - قارعة سبتمبر - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة سنة ٢٠٠٢ م.

فهرس الموضوعات

| الموضوع | الصفحة |
|---|--------|
| عن الموضوع | ٥ |
| ١ - مصطلحات المبحث وإطاره | ٧ |
| ٢ - الموقف الإسلامى من الأقليات | ١١ |
| ٣ - الواقع المعاصر للأقليات . والتحديات المحيطة بها | ٢٧ |
| ٤ - نظرة إلى المستقبل | ٤٣ |
| السيرة الذاتية للمؤلف | ٥٩ |
| ثبت بأعماله الفكرية | ٦٣ |

رقم الإيداع ١٦٧٠ / ٢٠٠٣

دار النضر للطباعة والإستلامية
٢ - شتارح فشتا على شبر الفسامة
ت : ٥٧٨٧٩١٨ - ٥٧٩٩٩٤٢
الرقم البريدي : ١١٢٣١

